مذاهب وشخصيات
من أعلام
الأدب الفرنسي
بقلم
دكتور جلال حسن صادق

مذاهب وشخصيات

من أعلام الأدب الفرنسي

بقلم
دكتور جلال حسن صا

أبحاث نقدية تحليلية

عن بعض شخصيات الأدب الفرنسي

- دينيس ديدرو
- جورج لويس دى بوفون
- سانت بف
- مدام دى ستال
- فيكتور هيجو
- آلان رينيه لساج
- فرانسوا رينيه دى شاتوبريان
- برناردان دى سان بيير

مقدمة

قسم الفريد دى فينى فى مقدمته لتمثيلية « شاترتون » المجتمع الفكرى الى ثلاث طبقات . وبين لنا أن هذه الطبقات تلعب على مسرح الفكر أدوارا مختلفة متباينة ، وشرح لنا قيمة هذه الادوار وقيمة من يقومون بتمثيلها .

أما الطبقة الاولى فيمثلها ذلك الرجل الناجح فى كل أمور الحياة .. ذلك الرجل الذى زوده القدر ووهبته الطبيعة أسلحة مختلفة يواجه بها تيار الحياة القوى ويحوله الى المجرى الذى يريده .. هو الرجل الذى يجارى الظروف لكى يستطيع فى نهاية الامر أن يكيفها على حسب هواه وارادته . انه الرجل الذى ينجز دائما ما يصمم عليه من أعمال ، ويقول لنا ما يجول فى نفسه من آراء وأفكار . هو رجل قد اقفرت نفسه من الاضطرابات الوجدانية والعواطف الصارخة الثائرة، هو ذلك الذى لا يرى الا المظاهر الباردة للاشياء ، لانه لا يشعر بها أو يحسها ، بل هو على العكس يستنشق عبيرها من بعيد ، كأنها الامواج التى تعبق برائحة أزهار مجهولة . هو ذلك الرجل الذى يستطيع أن يعالج التمثيليات والقصص والتاريخ والمقالات السياسية . ولكنه يعالجها بطريقته الخاصة : هو يتوخى سلامة الاسلوب وفخامته بدل الصعود الى وحى الالهامات والعواطف .

هذا هو « رجل القلم L'homme de lettre

هو رجل محبوب لان الشعب يفهم ما يقول ويستسيغ ما يكتب .. هو رجل الساعة .. هو الرجل الذى مجده القرن الثامن عشر . هذا الرجل ليس فى حاجة الى عطفك أو رحمتك .

***

يمثل الطبقة الثانية رجل تعلو طبيعته على طبيعة الرجل الاول .

ان اعتقاده القوى العميق ، هو المنبع الذى يستقى منه كل انتاجه .. ذلك الانتاج الذى يشبه الامواج المزبدة التى تسيل على الارض صلدة مقفرة ! .

حكمه سليم لانه يخلو من المؤثرات الخارجية ، ولا تشوبه العواطف المختلفة . عبقريته هادئة تتكون عناصرها من الملاحظات العميقة والمشاهدات الكثيرة .. لغته فخمة رائعة تخاطب العقل تارة والقلب أخرى .

هو الرجل الذى يشعر بأشد الحاجة الى النظام ، لكى يواجه به الشعب .. يواجه به تلك النفوس التى يسوق اليها أفكاره

واعتقاداته .. هو الرجل الحر الذى يسير فى الاتجاه الذى يحبه ويرضاه.
هو الرجل الذى يلقى البذور وينتظر أن تنبت وتترعرع وتنضج لكى يحصدها .. هو الرجل الذى قبض بيده على شعب بأسره .

هذا هو الكاتب الكبير .

هـذا الرجل لايقاسى ولا يتألم لانه يملك دائما ما تصبو اليـه نفسه . قد يهاجم من أعدائه ولكنه سواء قهر أو قهر فجبينه دائما مكلل بتيجان من الغار ! هذا الرجل ــ هو الآخر ــ ليس فى حاجة الى عطفك أو رحمتك .

أما الطبقة الثالثة فيمثلها ذلك الرجل الذى لا يعيش فى الارض بل يعيش فى السـماء .. هو الرجل الذى لا يصـلح لشىء أو يصلح لكل شىء .. هو الرجل الذى لا يعيش الا لانتاجه المقدس .. هذا الـرجل لا يأتى الى العالم الا فى فترات متباعدة .. وهذا من حسـن حظه . ومن سوء حظ البشرية . أن يولد وتولد معه عواطفه .. العواطف القوية التي تلقى به الى عوالم من الاحلام التى لا نهاية لها . ان حساسيته قوية متنبهة حتى أن الاحداث التى لا تكاد تؤثر فى غيره نراها تدميه الى الاعماق . هو يكره المجتمع لانه يفهم المجتمع .. يفهم تياراته بجلاء وعمق لان عينه تنصب مباشرة على الاسباب والعلل . ولكنه يصمت ويبتعد وينطوى على نفسه أو هذا ما يخيـل الينا . فنفسه فى الحقيقة مشتعلة متأججة تنفث الشرر كأنها فوهة بركان وأخيرا هو ذلك الرجل الذى يسير ولا يعلم الى أين يسير ! .

هذا هو الشاعر !

هذا الرجل يستحق كل دموعك وكل رأفتك وحنانك : اغفر له وانقذه ومهد لهأسباب حياة مضمونة ، لانكاذا تركته لشأنه فقد تركته .. للموت .

هو يصيح فى الناس : أنا أوجه حديثى اليكم ، فاجعلونى أعيش .

فيجيبه الناس : نحن لا نفهمك . والناس على حق فى اجابتهم هذه .

هو يصيح للقدر : استمع الى ، ومهد لى سبيل الحياة .

فيجيبه القدر : وماذا أصنع بك ؟ ، والقدر على حق فى اجابته .

الناس كلهم على حق ما عداه هو . ولكن ، هل هو على خطأ ؟ وماذا يجب عليه أن يصنع ؟ .. لاشىء ، سيبقى شاعرا الى أن يموت !

والآن هيا معى ايها القارىء الكريم لنزور هذا المجتمع ونعيش فيه برهة نخالط فيها طبقاته هذه ، ونضـطرب مع أفرادها فيـما يضطربون فيه .. متخذين من « جوسـتاف لانسـون (١) وأناتول فرانس (٢) مرشدين لجولتنا فى مجتمع الفكر » ..

ج ـ ح ـ ص

---

(١) Gustave Lanson : Histoire illustree De la litterature Française.

(٢) Anatole France . Le genie latin.

دينيس ديدرو

(١٧٨٤ – ١٧١٣)

منهج البحث

١ ـ لوحة حياته •

٢ ـ شخصية ديدرو •

٣ ـ آراء زيدرو الفلسفية •

ديدرو « رجل الطبيعة »

٤ ـ فن ديدرو •

٥ ـ « صالونات » ديدرو •

لوحة حياته :

ديدرو من النجوم المشرقة ، التى لمعت فى سماء الادب الفرنسى خلال القرن الثامن عشر ، وهو زهرة عطرة فى باقة العبقرية ، التى أخرجتها أرض فرنسا الخصبة الطيبة .

ولد دينيس ديدرو ، سنة ١٧١٣ ، وتأبط ذراع الزمن ، وسار معه قاطعا أشواط الحياة ، ملاقيا فيها مايلاقيه المرء عادة من أحـــداث ونوازل . ولكنه كان ــ شأن كل العباقرة ــ يستفيد أكبر الاســـتفادة من صور الحياة الجادة فى السير ، وأضابير التاريخ التى تزداد يوما بعد يوم .

رفض ديدرو أن يغل روحــه الطليقة بأغلال الوظيفـــه البغيضة والعمل المكتبى الرتيب ، لانه شعر منذ وجد فى هذا العالم ، أن روحه التى تقمصت جسده قد خلقت لعمل آخر .. خلقت لعبـــادة الحق والخير والجمال .. خلقت للاشتغال بالادب والفكر والفلسفة ! .

ولكن ديدرو ، انحدر من أصلاب أسرة فقيرة لا تملك الا قوت يومها فورث عنها الفقر والحاجة . فلا مفر اذن من العمل ليعيش ، وليكبت تلك الاصوات القوية المدوية التى تصرخ بها الحياة فى ســمع الاديب المعوز !! فليختر اذن العمـــل الذى لا يتعـــارض مع روحه الحرة وفكرة الطليق .. فليعط بعض الدروس ، فى الموضـــوعات التى تشغل فــكره وتداعب خياله . وليقم باعباء بعض المكتبات ، فيكون عمله بين الكتب .. تلك العوالم الحاضرة الارواح ، الجياشـــة بحياة مؤلفيهـــا ومبدعيها .

وفى سنـــة ١٧٤٥ عهد اليه بتصنيف « الانسكلوبيديا » أو دائرة المعارف التى ظهر أول جزء من أجزائها سنة ١٧٥١ . وفى تلك الاثناء ، تفتح ذلك البرعم المقفل ، حينما سلطت عليه أشعة الاطلاع والتفكير .. تفتحت عبقرية ديدرو ، وواجهت الحياة فأثرت فيــــها وتأثرت بها . وهكذا أخذ يخرج للناس روائع فكره ومعجزات عقله فلـــما طبعت رسالته القوية البليغة ، تلك الرســـالة التى أســـماها « رســـالة العميان (١) .. » ذاع صيته ، ورددت اسمه الالسنة ، ورشح ليكون عضوا فى الاكاديمية الفرنسية . ولكن ذلك الترشيح ، لم يخرج الى حيز التنفيذ لان الملك لم يكن راغبا فيه ! ! وهكذا حرم هذا المعهد الكبير من عبقرية دينيس ديدرو العظيمة . وكأن القدر ، الذى ناصبه العداء فى شخص ملك بلاده ، أراد أن يكفر عن خطيئته ، فحول أنظار « كاترين » العظيمة اليه فأخذت تمده بمساعداتها الادبية والمادية

---

(١) Lettre Sur les a veuglesa L'usage deceux qui voient.

وازاء هـــذا العطف الـكريم سافـــر دينيس الى « سانت بطرسبرج» ليشكرها على صنيعها .

وهكذا سار ديدرو فى الحياة : فقيرا بماله ، غنـــيا بعبقريته وفكره الى أن مات سنة ١٧٨٤ .

***

شخصية ديدرو :

« رأس ضـــخمة مستديرة ، تتـكيء على كتفين عريضين ، كأنها الديك القابع فى قمة الساعة الدقاقة : هذه الرأس لا تستقر أبدا فى نقطة معينة ، ولا تهدأ مطلقا فى اتجاه واحـد .. التفـــاتاتها سريعة مباغتة فى حركاتها الحسية ، ورغباتها ، ومشروعاتها ، وأفكارها » .

« أنا ابن قريتى ، وسياحتى فى العاصمة ليســـت الا لونا من التسلية المستمرة التى تصقلنى وتهذبنى » .

انحدر دينيس من « لانجروا » ولكنه سرعان ما تأقلم فى جو باريس ، مدينـــه النور ، وأصبح باريسيـــا قحا كما يقولون . لقـد صقله حقا هذا التأقلم وهذبه ، ولكن ليس كما قدر هو واعتقد . فعقله قد احتفظ بعجلته وسرعته وعدم استقراره ، ولكنه ـ من ناحية أخرى ـ كان يتمتع بعمق التبصر الذى يجارى هيجان ذلك العقل وثورته .

كانت نظـــرة ديدرو وابتسامته ، والتجاعيـد الساكنة فى جبهته والتفاتاته الصريحة ، كان كل ذلك يتكلم عنه قبل أن يجـــد هو من يجاذبه أطراف الحديث . ولم يكن من يراه فى حاجة لموهبة خارقة كى يحكم عليه أنه شخص ثرثار .. نعم ! كان ديدرو ثرثارا يقص القصص ، ويزجي النصائح ، ويتكلم فى كل موضوع ، ويناقش فى كل صغيرة وكبيرة ، ولكن كل ذلك عن تفكير وتدبر ، واخضاع لموازين منطقـــية صحيحة وهو متمكن من موضوعه ، مالك لناصيته ولذلك .. يجب أن يتكلم ! ويتصف بتلك الخصـــلة التى اشـــتهرت بهـــا جمـــاعات الناس فى بلده ومسقط رأسه ونعنى بها الصراحة . ولذلك نجده يقذف بحقائق الناس فى وجوههم ويقول عنهم ، وأمامهم ما يدور فى خلده . وهكذا تنفجر هذه الحقائق السافرة العارية على رأس من تخصـــه وتعنيه ، وهو يتمتع بروح فكاهية تمتزج بها سخرية لاذعة قاسية ، يلفظها أمام الحضـــور فى جرأة عجيبـــة من غير أن يقيم وزنا لاحد ، لان هذه السخرية تفور فى رأسه ، وتغلى فى مرجل عقله .. فهو لا بد أن يتكلم !

لم يكن ديدرو ، ابن القرية الصغيرة ، ليصلح لمواجهة العالم الفسيح برحمته وضجيجه ، بل كان ربيب « الصالونات » التى فتحت له أبوابهـــا ، بعد أن سمعت ببعـد صيته واســـتفاضة شهرته ، وجد ديدرو اذن نفسه ـ كغيره من الناس ـ بـين جماعة من الاصـــدقاء يعلم

عنهم الكثير لانه يراهم أثناء العمل ، وبناء هياكل المشروعات لتنظيم حياتهم واصلاح عوجها فماذا يكون موقفه منهم ؟ أيقف موقف المتفرج يرى ولا يعمل ؟ لا ! انه لا يقنع بهذا الموقف ولا يرتضيه لنفسه لانه يريد أن يتحرك و ..... يعمل ! ولذلك نراه يقـذف بنفسه فى محيطهم ، ويفرض وجوده على وجودهم بل وعلى عواطفهم الخاصة فينصح لهم فى شدة المستبد ، وامارة صاحب النفوذ · انه الغراب الذى يسحق النواه ! ومن هنا نستطيع أن نفسر تلك الجفوة التى قامت بينه وبين جان جاك روسو . فهو يريد أن يتسلط ويستبد . يريد أن يبقى روسو فى باريس ، ويريد أن يبعث به الى جنيف ·· انه يصمم ، ويدير دفة العمل .. لانه يجب أن يتكلم !

أما خصال ديدرو الاخرى ، فعالية سامية .. مريحة ! فهو عطوف ، طيب القلب ، تجول فى أرجاء نفسه عواطف رقيقة ، ونزعات معتدلة فاذا أردنا أن نرسم له لوحة ، وهو فى الوسط العائلى وداخل محيط الاسرة خرجت هـذه اللوحة زاهية الالوان مشرقة الظـلال منسجمة الخطوط . فهو الابن البار ، والاخ المخلص ، والاب الحنون ، والزوج المحب . فاذا تعدينا ذلك الى الصداقة ، ألفيناه الصـديق الحميم الذى تنبع صـداقته من قلبه الحى . هو دائما على قدم الاستعداد للبذل والاخلاص ولا يطلب من صديقه الا الخضوع لشرط واحد هو أن يفتح له قلبه ، وينقى له ضميره · ويتركه بعد ذلك يتصرف على ضوء ما قرأه فى ذلك القلب وما استشـفه من هـذا الضمير ! !

وهكذا عبر ديدرو عصره وهو فى ثورته النفسية هذه ، تحيطه من كل جانب لا يستطيع التخلص منها أو الفكاك من أسرها ، ولكنه رغم ذلك لم يصب بالتعب أو الاجهاد بل على العكس ، كان دائما يشعر بالنشوة الجامحة من ذلك التهيج وتلك الثورة التى كانت دائما تتخمر فى رأسه .

لقد كان اسلوب ترتيب أفكاره ، وتنظيم أقواله فريدا فى نوعه . فهو المحدث الذى تصدع قوة حديثه رأس المستمع اليه ، وتسبب لها نوعا من الدوخان والتخدير . لقد كانت محادثاته نارية ساحرة ، تحوطها هالة ناصعة من الدخان القوى النـافذ والسرعة الخـاطفة المباغتة · وكانت تلك المحادثات تتكون من عناصر كثيرة متغايرة · من صور الطبيعة ، والافكار المجردة ، والعلم الجامد ، والاقاصيص وفسلفة ما وراء الطبيعة ، والاحلام والفروض ، والنظـريات المبتـدعة ، بل وموضوعات السحر والتنجيم التى تسبب الدهشة والاستغراب كل ذلك وهو جالس بجانب موقد النار المشتعل فى منزله بشارع (تاران) أو فى قهوة رجينس أو فى بيت مدام ديبينـاى أو فى جراندفال عنـد البارون هولباش . فى كل هذه الامـكنة ، كان ديدرو دائما على أهبة الاستعداد لاثارة موضوعاته السالفة اذا حركته كلمة ، أو استلفتت نظره اشـارة عابرة · لم تكن محادثاته هى كل شىء · فبعـد أن يفـرغ من قصصـه ومساجلاته وصـياحه نراه يتناول قلمه ويدبج الصفحات الطوال وهو

يتجاذب أطـــراف الحديث الهـادىء المتزن تارة مع محدثه الاول وأخرى مع محدث آخر .هذه الصفحات الطوال التى كتبهاديدرو وهويتكلم مع من حوله هى التى كونت فيما بعد رسائله الشهيرة الى فالكونى ، والا ٓنسة فولاند • ولكن كل هذه الاحاديث وتلك الخطابات لا يمكن أن تقـاس الىٰ جانب انتاجه الاصلى الذى كانت تفرزه عبقريته فى الحين بعد الحين لقد كانت تلك الخطابات والاحاديث تريحه من كتبه اذا أجزنا لانفسنا أن نفرض أن تلك الكتب كانت تسبب له بعض الاجهاد !! فديدرو كان يكتب كما كان يتكلم : بسهولة عجيبة ، وبروح فكهة ســاخرة ولذلك لم يكن يشعر قط بأقل تعب أو اجهاد • ولقد « طهر ذلك عقله » كمـا يقول أرسطو كان ديدرو فى حاجة ماسة الى الكتابة كما كان فى حاجة الى الكلام لذلك لم يرسم لنفسه منهجا خاصا يسير بمقتضاه ولا يحيد عنه بل ترك نفسه على سجيتها : ينطق لسانه بما يريد أن يقوله مباشرة من غير تنميق أو تزويق وكذلك كان قلمه • لقد كان مدفوعا الى الكلام والكتابة بقوة غامضة قاهرة غلابة لم يستطع هو نفسه أن يفسرها أو يفهمها • كل ما هنالك أنه كان يشعر – عقب الـكلام أو الـكتابة – أنه قد استراح أو تخفف من حمل مجهول •

فى أحاديث ديدرو وكتبه أشياء كثيرة غير مستحبة ترجع الى ما سبق وشرحناه وفصلنافيه القول اعنى حبه للارتجال والصراحة والسخرية المفرطه • ولقد لازم ديدرو طريقته هده طوال حياته ، ولم يتر نها الا اثناء حقبة قصيرة من عمره ، هى تلك المدة التى أخذ على عاتقه فيها الاشتغال بتصنيف الانسكلوبيديا أو دائرة المعارف •• ففى هذه الا ٓونة نراه يتكلف التحفظ ويهجر فحش القول لانه شعر أنه من اللازم عليه – اذا أراد أن ينهى عمله على خير الوجوه ، ويصل به الى بر السلامة – أن يخفض من نغمته • ويلجم لسانه أثناء العمل! ان هـــذا المجهود الذى بذله ديدرو فى السيطرة على فكرة الجموح، ولسانه الذى اعتاد أن يصول ويجول أثناء اشتغاله بدائرة المعارف ، ليعد حقا من خوارق المعجزات التى أدهشت كل من عرفه واتصل به • وهنا يحق للقارىء أن يتعجب هو الا ٓخر ويتساءل عن السبب الخفى فى تحقيق هذه المعجزة الخارقة ! هو سبب بسيط غاية البساطة لقد تحققت المعجزة لان ديدرو كان يرغب فى النجاح فكافح وجاهد لتحقيق هذه الرغبة والوصول بعمله الى القمة ولذلك نراه قد تنقب بالاحتشام ، والتزم التحفظ الشديد فى كل ما يكتب • هذا التحفظ يتمثل فى عدم مهاجمة الحكومة أو الدين ، لان تلك المهاجمة اذا وقعت من جانب ديدرو كانت ستسبب أكثر من فضيحة . ولكن هدوء ديدرو الظاهرى المفتعل كان وراءه ما وراءه ! فلسانه كان يتحرق للانطلاق والنطق ، وعقله كان فى حاجة قصوى الى الافراز من غير عائق يعوقه أو مانع يقف فى ســبيل مده وطوفانه ! كم فجر هذا العمل الصامت من براكين فى نفسه ! ان كل ما لم يقله فى مقالاته هــذه نجده قد دبجه فى افاضـــة واطناب بمقالاته ورسالاته التى ظهرت بعـد اتمام عمله فى الانسكلوبديا ، لقــد كتب هذه المقالات والرسائل بقوة وشدة ، لانه كان قد اختزن مادتها فى عقله فأخذت تتخمر ، وتغلى وتفور حتى اذا ما وجدت منفذها الى الورق خرجت مندفعة فى ثورة مجنونة !•

لم يكن ديدرو يكتب لاغراض خاصة معينة محددة كابتغاء المجد أو النجاح أو الكسب المادى كما أنه لم يكن يكتب للناس ، كان يكتب لنفسه ليخلى فكره ويعصره ويطرد ما فيه ! والدليل على ذلك أن الكثير من انتاجه الفنى قد وجد مدفونا بين أوراقه الكثيرة · ذلك الانتاج الذى تندرج تحته تلك الكتب القيمة العظيمة :

« تأملات فى ترجمة الطبيعة »

• Pensees Sur lnterpretation De La nature

و « درامياته » و « مناجاة فيلسوف مع المرشال دى » ·

Entretien Dun Philosophe avec lamarechale De

هذه الكتب هى التى ظهرت فى حياته ونشرت على جمهور القراء · اما كتبه الاخرى فهى التى وجدت مدفونة بين باقى أوراقه كما سبق وأشرنا · ومنها « حلم دالمبير » و « جاك المؤمن بالقضاء والقدر » ·

Reve De dalembert et jacques Le Fatalisie.

وهذه الكتب وغيرها تضم أقوى انتاج ديدرو وأضعفه ·

مما سبق يمكننا أن نستنتج أن كل ما يعني ديدرو هو الكتابة ، والتمتع بلذة ما يكتبه ، اما أن يضع اسمه على ما يكتب ، فان ذلك لم يكن يضيف أى سرور على سروره الاصلى الجوهرى · لم يكن ديدرو يترك الخواطر التى تمر فى شريط خياله دون أن يقفل عليها عقله وهناك تمر فى أجزاء هذه الآلة العجيبة حتى تنضج وتصبح صالحة (للورق) وكذلك الافكار لم يكن ليتركها تعبر عقله كالطيور السانحة دون أن يقتنص منها شيئا بل كان يحبس ما يقع منها تحت ذاكرته كل ذلك ليكتب ، ويكتب حتى لا تتعطل الآلة · وهكذا بعد ثلاثين سنة من هذا السيل المنهمر من غير انقطاع ، نستطيع أن نقول أن ديدرو قد مات ولا يشغل باله الا أن عنده أيضا ما يريد أن يقوله أو يكتبه !··

ان هذه الشدة التى امتاز بها ديدرو ·· شدة ترجيع أفكاره الى أصلها الحى كانت نتيجة مباشرة لنشاطه المتزايد ، وحيويته المتدفقة فى الاستغراق فيها ·

فان تلك الآلة الجبارة القادرة ، التى لا تنفك عن الدوران والعمل ، والضجيج والصياح ، فى جمجمته كانت دائما معرضة لضغط قوى شديد من الخارج ، ولذلك كانت دائما ابدا تخرج عملا مستمرا غير منقطع · وآلة هذا شأنها يجب أن يمدها صاحبها باستمرار بالوقود الكافى الذى يجدد في أوصالها الحياة ويساعدها على العمل والدوران · لم يكن ديدرو بالعبقرية الخالقة المبدعة حقا · ولكنه كان قادرا على خلق عوالم من نفسه الخصبة الطيبة ·· ومن وجوده ، وهو بهذا يبعد تمام البعد عن روسو واضرابه من الادباء والفنانين والفلاسفة وبهذا السبب عينه اضطردينيس أن يكون عالما ومحباللاستطلاع . ولقد أنصفه اميل فاجيه المؤرخ الشهير حينما قال عنه : « انه يجرى وراء جمهرة من الاشياء لم يكن العلم بها شائعا فى زمنه » · فنحن حينما نرى مفكرى فرنسا ــ الذين لا يرعبهم شىء فى الميدان الفكرى ــ يتقهقرون أمام «سبينوزا» ، لامن ناحيةاقدامه

وتجاسره فى التفكير ، ولكن أمام ذلك العمق الذى يشيع فى كل مذاهبه وآرائه . نرى ديدرو ، من غير صخب أو ضوضاء ، يشبه ذلك العمق وتلك الشدة بأسلوب « ليبنز » ويأخذ فى التصدى له والوقوف أمامه غير وجل على رأسه من التحطيم !. فلا غرابة اذن أن يعرف بعد ذلك فى أرض فرنسا بصاحب « الرأس الالمانية » .

لقد عالج ديدرو الرياضيات وعلوم الطبيعة ، والتاريخ الطبيعى وعرف كل فروض العلم الحديث وتجاربه . وكذلك تعمق فى معرفة فن الرسم والموسيقى أما ديدرو فى ميدان الادب ، فهـو القارىء اللبق ذو المحصول الواسع ، والمادة الغزيرة . لقد درس الآداب الاجنبية وآداب القرن السابع عشر .

وهو يعلم الكثير عن الآثار القديمة . وعلمه هذا ليس نتيجة مطالعة قارىء عابر يمر على ما يقرأ مر الكرام كما يقولون ، لا ، فهو يتتبع التفاصيل ، ويدأب فى البحث عن الدقة والصحة .

فهو اذا قرأ « هوراس » ، لم يقرأه من ناحية واحدة ، بل قرأه من نواحيه المتعددة وزواياه المختلفة : أو من ناحيته الادبية اللغوية ثم من ناحيته الفنية الشعرية ، وأخيرا من ناحيته التاريخية . أى « هوراس» كمؤرخ . واذا قرأ « بلين » ، فهو يقرأه دائما من ناحيته الادبية اللغوية ولكننا كذلك نجده لايهمل ناحيته الفنية فى الرسم والآثار القديمة ، فهو يأخذ كل سفر ويقرأه على حدة ، كما يفعل العالم المتخصص .. أى يقرأه بعين ذلك العالم وعقله . يقرأه على هذا النمط وتلك الطريقة قبل أن يمزجه بأحلامه الخاصة !

وهكذا يتقدم ديدرو : لم تكن خصوبة ذهنه ذاتية . فهو دائما فى حاجة الى ضربة من الخارج لتحرك فيه زوابع فكره وطوفان عقله .

ان عقله دائما فى حالة تذبذب واهتزاز : فالآلة تصفر وتدوى وتخرج البخار والدخان ثم تصدر عنها الضوضاء والضجيج . وهنا يذهل المرء من عدم التناسق فى عمل الآلة المدوخ ومن ضجيجها الجهنمى الخبيث ... كل ذلك من أجل حركة بسيطة خفيفة ، هى التى أعطت الحياة والنشاط للآلة فدارت وفرقعت و ....!

والآلة المادية اذا سارت انتجت وكذلك الآلة العقلية حينما تدور تنتج مصنوعات فكرية دقيقه غاليه ! تنتج « جاك المؤمن بالقضاء والقدر ».

***

فى مئات الصفحات . لقد كان ديدرو وهو يسطر هذه الصفحات يخضع لحالة نفسية عجيبة . هى الحالة التى تكلمنا عنها قليلا . كانت نفسه تكافح ضغطا خارجيا قويا . والآن يحق لنا أن نتساءل : ألم يكن ديدرو دائما هكذا ؟ لا . فالضربة الخارجية عند ديدرو ليست عاطفة ،أى أنها ليست من الاعمال الايجابيه الناتجة من وجوده وتجاربه . بل هى ضربة العقل . ذلك العقل الذى حاول جاهدا أن يترجمها بالكلام أو ...

الادب . وفوق ذلك فان الترابط بين الحالة الخارجية وبين تفكيره الباطن النفسانى ترابط واه غير موجود بالفعل .

ديدرو مفسر بارع مدهش ، وتفسيره يفوق عادة نص المتن المشروح . ولذلك نراه قادراً على (تقليد) كتب الغير وتفسيرها ولكنه اذا تصدى لنقدها فشل ولم يجد القدرة التى تمكنه من ذلك . فهو اذا جلس يستمع الى كتاب يتلى عليه لم يقنع بالاستماع والفهم بل يأخذ أهبته للسفر مع فكرة المؤلف والسياحة معها فى أجواء وعوالم لا يعلمها الا هو . وأخيرا ، بعد أن يفرغ القارىء من تلاوة الكتاب نجد ديدرو قد أخذ فى سرد وقائع الكتاب وتفاصيله بطريقه مغايرة تماما عن تلك التى انتهجها المؤلف وسار عليها بطريقته الخاصة وكأنه وضع كتابا آخر يمكن أن يحل محل الكتاب الاول . أما فى المحادثات فديدرو هو هو لا يتغير ولا يتبدل . فان كل ما يقال له فى ساعتين كاملتين لا يعنيه فيه الا فكرة واحدة يتصيدها هو من سرب الافكار الكثيرة الطائرة ثم يحملها الى عقله ، ويعمل فيها حتى لتخمر وتكبر ، وتمتد وتستطيل وأخيرا يخرجها للسامع فى ثوبها الجديد وكأنها فكرة مبتدعة قد خلقها عقله فيدهش هذا الاخير ! لان فكرته الصغيرة هذه قد تصبح مذهبا كبيرا يسبب له الثورة فى بعض الاحايين .
هذه هى آلية ديدرو العقلية ... وهى آلية غريبة معجزة !

***

آراء ديدرو الفلسفية

ديدرو « رجل الطبيعة »

اذا صرفنا النظر عن دائرة المعارف أو (الانسكلوبيديا) وقد شرحنا الدور الذى قام به كاتبنا الفيلسوف فى تصنيفها . وجدنا ديدرو لايقل بحال عن جان جاك روسو ، وفولتير فىالقرن الثامن عشر . فقبل روسو ، وحينما كان فولتير لا يزال هائما فى وادى الاحلام أصبح ديدرو بحق « رجل الطبيعة » . واليك موقفه من الطبيعة ، ومنزلتها منه .

دراسات ديدرو الشديدة العمق فى الطبيعة أوصلته الى نتيجة وخيمة . فقد أنكر وجود الله وقال : « ان الله لايوجد فى الطبيعة » ولقد شبه ديدرو العالم بكرة ضخمة كبيرة أو عددا من الكرات اللامتناهية العدد تنساب وتتدحرج من غير توقف أو انقطاع . وهذه الكرات لاتتبع أى نظام فى سيرها وتدحرجها ، ولذلك فهى تتقابل وتتصادم وتكون شبكة معقدة من الحركات الضرورية التى لاتضعف قوتها أو تموت أبدا .

أما موقف ديدرو من الأخلاق فموقف عجيب غريب ولكنه طريف فى نفس الوقت . ألا تظن أن المرء يمكن أن يكون سعيدا حينما يولد لأنه يجد لذة كبرى فى عمل الخير ؟ يجيبديدرو على هذا السؤال فيقول نعم ! وأن المرء اذا تلقى دراسةممتازة ، ألا تقوى فيه هذه الدراسة ميلهالطبيعى الى فعل الخير ؟ .. بالتأكيد !!

ثم يعود فيتساءل : ألم تعلمنا التجارب ــ منــذ قديم الزمان ــ أنه يجب على المرء ، من أجل سعادته فى هذا العالم ، أن يكون شريفــا لا نذلا لئيما ؟

وهكذا يمكننا أن نســـتخلص أهم العناصر التى تكفى لبناء صرح الأخلاق • انها الغريزة والتعليم ، والتجربة •

ان المرء اذا تصنع الخير والفضل ليذهب عن طريقهما الى الجنة، فليس معنى هذا أنه فاضل أو خير • كما أن الصلاة ليست هى عمليــة الذهاب الى الــكنيسة أو البيعة وعدم لمس الأوانى المقدسة !!

والطبيعة فى نظر ديدرو تناقض المجتمع تمام المناقضة فكل الرذائل والشرور التى يتصف بهـــا « الفرد الاجتماعى » من جرائم ، وتعصب ، وحروب ، وآلام ، مصدرها ومنبعها المجتمع • فالمجتمع هو الذى خلق أو اخترع مانسميه بالقوة والامتياز ، ونظام الطبقات والغنى ، والفقر • وكل هذا يمكن أن يترجم بأمانة وصراحة ، يختصر فى كلمتين اثنتين هما الجور والاستبداد بالاخرين •

هذا هو ديدرو (الأخلاقى) قوى صريح • يمزج صراحته فى بعض الأحايين ، بفحش القول ، ولكنه دائما أبدا عميق التفكير ، قوى الملاحظة • ولهذا رأيناه يهاجم الأخلاق السائدة فى قوة وشدة ويقــول هى نوع من الأوضاع الاجتماعية ، يجب أن تمقت وتبغض • لأنه باسم الأخلاق نربى الأطفال ونمنعهم من بعض اللذات النافعة لمداركهم وعقولهم •

ان نظر ديدرو هذا فى الطبيعة ، ماهو الا اعادة وترجيع لما قاله كل من « رابليه » ، و « بانيجر » ، « الأخ جان » •

ان طهارة النفس ومناعتها وحفظها كلها سخافات لأنهــا فضـــائل صناعية ولدها المجتمع ولم تلدها التجارب أو التعليم أو الغريزة • ان الخير هو مايشعر الانسان بغريزته ويعلم أنه خير • والآن يجدر بنا أن نســأل ديدرو عن الفضيلة • انصت أيها القارىء فهاهو ديدرو يجيبنا : ان الفضيلة تنحصر فى كلمة واحدة هى فعل الخير • كل مايفيد الانسانية هو خير • أما كل مايؤذى الانسانية ويضرها فهو شر لاشك فيه •

يقول ديدرو : اذا أنا كذبت أو تعاطيت الخمر ، أو فعلت ما هو أردأ من هذا فما أهمية عملى هذا اذا لم يؤثر فى غيرى ، أو يكون له امتـــداد مشئوم خارج محيطى الخاص ؟! أما اذا نتــج من كذبى ، أو شربى للخمر خيرا لأحد فا ستطيع حينئذ أن اقول اننى قمت بعمل طيب محمود . وتفكير ديدرو هذا ترجمه صاحبه الى اللغة العملية • وسار عليه فى حياته الخاصة ولذلك أنقذ من « الرذائل التى تذل صاحبها وتبخسه حقه » • وكذلك نراه قد ضمن هذه الأفكار وحشرها فى بعض كتبه التى لاتعالج الفلسفة أو علم الأخلاق • والآن ألا يحق له أن يعجب أو يحب ، هـــذا الانفجار اللذيذ ، للنشاط الطبيعى فى كتابه العظيم Neuve De Rameau. ففيه يقول « ان المهم هو أنه أنت وأنا موجودان » •

وأخيرا نجد ديدرو لايفرق أو يميز بين الطبيعة والعلم • فالطبيعة عنده هى العلم • لأنها تلد لنا المنهج والاتجاه والنتيجة • ولكن كلمة الطبيعة لاتقف عند مدلولها الجامد ، بل هى تنتهى عند ديدرو الى معنى عصرى • فهو لايرى مطلقا ، أو لايؤمن بتلك الطبيعة (الداخلية) التى درسها القرن السابع عشر • والتى نادى فلاسفته ومفكروه «بأن المعرفة واثبات الوجود عن طريق الطبيعة الداخلية أيسر بكثير منها عن طريق الطبيعة الخارجية » ان ايمان ديدرو بالطبيعة الخارجية واضح كل الوضوح فى كتاباته وابحاثه ، لأنها جاءت عن طريق « الضربة الخارجية » كماسبق وبينا •

فلسفة ديدرو هى نفس فلسفة عصره لأنه اعتقد كما اعتقد فلاسفة عصره : « أنه من الواضح أن الطبيعة الخارجية ، والعلوم التى تشرحها وتعالجها يجب أن تكون النقطة التى تهدف اليها أبحاثهم » • ولذلك أعلن دنيس أن عهد الرياضيات قد انتهى • ولكنه أعلن كذلك — وبثقة تكهنية — أن عهد العلم الطبيعى سوف تبدأ دولته • ويعنى بالعلم الطبيعى ، علم وظائف الاعضاء (الفسيولوجيا) ، وعلم الطبيعة من هذه الناحية نادى به ديدرو شباب عصره المثقف ،وقد أحاط نداءه هذا بهالة من التضخيم • ولكن اشاراته التدجيلية هذه — ان صح هذا التعبير — كانت تخفى تحتها أفكار العالم •

اذا سرنا مع ديدرو لاحظنا أن التناسب القائم بين العلم والفلسفة قد قلبت أوضاعه رأسا على عقب • فمن المعلوم والمصطلح عليه ، أن الفلسفة كانت دائما تضع مقدماتها وقوانينها وطرقها فى معالجة المسائل فى خدمة العلم ، ومن ثم يبدأ التعليم فى عمله على ضوء ماقدمته له الفلسفة • ولكن الحال عند ديدرو تغير تماما وانقلب الى ضده • فالفلسفة قد تنازلت للعلم عن ترتيب مقدماتها وطرقها ، وأخذت تنتظر اختراعات العلم تستخلص منها قانونا عاما للوجود !

ان فلسفة ديدرو هى حقا فلسفة الطبيعة مثل لييبنيز الذى يقول : « ان دراسة العالم غير العضوى دراسة علمية تتغير دائما » •

ولهذا نرى ديدرو قد سبق « هلفيتيوس » ، و « هولباش » فى « وضع الرجل فى الطبيعة » • وفى اخضاع العلوم الأخلاقية للعلوم الطبيعية •

***

فن ديدرو : —

ان فن ديدرو هو نظام متسق معتدل مع فلسفته • ولما كانت ناحية انجازه لما يعالج ، والبلوغ به الى قمة التمام لاتغنيه كثيرا ، فسوف نحصر كلامنا فقط على مراميه التى أراد أن يشرحها ، والتى حاول أن يهدف اليها بكتاباته الفنية •

ان أول مايستلفت نظر الباحث في فن ديدرو ، هو مايمكن أن نسميه (بالفن الطبيعى) الذى يعبر أحسن تعبير وأدقه عن الحياة كما هى فى الواقع ، وممثلى الحياة كما رآهم هو بعينيه ، وخبرهم بعقله وفؤاده • لقد عرفناه دائما متأثرا بالطبيعة الخارجية ، ولذلك نراه يتقبلها فى سهولة ويسر ، ثم يدخلها آلته الجبارة ، وما يلبث أن يخرجها للناس ، وهو واثق بها كل الوثوق •

اقرأ كتابه « المراسلة » فسوف ترى خلال أسطره وبين صفحاته كل هذه اللوحات ، وكل هذه الأقاصيص التى حصدها بمنجل عقله ونظره من الطبيعة • ثم أقرأ له Le neveu De rameau وهو أعظم ماكتب ديدرو — فسوف تجد كل حقائقه ظاهرة لك بوضوح عجيب : فى وصف اللفتات ، وتقلب اللهجات ، وتغير الحالات • كل ذلك استعاره ديدرو من الطبيعة ، ولكنه لم يقتصر على ذلك بل أضاف اليه — من غير شك — الكثير من عندياته • ولكن هذا العنصر الدخيل على الطبيعة ، عنصر أدب ديدرو الذاتى ، قد امتزج تمام الامتزاج مع المادة (الطبيعية) الأصلية • لأن شدة بصيرته هى التى كانت تحرك القلم فى يده •

فهو حينما يغص (يرى) الوجوه ، والحركات ، والأمكنة • كل هذا قابع فى عينه • حتى أنه اذا تناول القلم ليكتب ، لفظت عينه هذه الصور الكثيرة الى القلم فتحول (يرسم) اللوحة الناطقة المجسمة • وهكذا يصبح كتابه صورا متعاقبات لا مجرد كلام يأخذ بعضه بتلابيب بعض •

ولكن لهذه الصور أقاصيص ، وهذه الأقاصيص تدخل فى دائرة الأدب (الرومانتيكى) فكل ماكتب ديدرو يرمى الى المذهب الابتداعى لانه مستمد من منبع واحد هو منبع الطبيعه التى يحترمها ولا يهمه غيرها• وأصدق مايمثل هذا المذهب فى أدب ديدرو هو كتابه Neveu De rameau ففى هذا الكتاب تمتزج العناصر الخيالية بالعناصر الحسية » وتتدافع فيه تيارات الطبيعة الخارجية فتكاد تكتسح أمامها العواطف الآدمية من حماسة وغضب وغيرها • والآن هاك نموذجا قصيرا يبين لك اغراق ديدرو فى المذهب الابتداعى :

« ••• وهكذا أخذت العبقرية مصباحها وأشعلته • ففتح الطائر الصغير الوحيد ، المستوحش النافر ، الضارب لون أجنحته الى الرمادى ، الحزين منقاره ، وابتدأ يغرد أغنيته الخالدة ، وهنا جلجل الغناء فى أنحاء الخميلة الصغيرة ، فتقهقر الصمت نشوان من شدة الطرب • وأخذ معه فى ركابه المنهزم ظلام الليل ••

ان من يقرأ هذه الاسطر يخيل اليه أنه يقرأ لشاتوبريان الذى يمثل المذهب الابتداعى أبدع تمثيل •

أسلوب ديدرو يحوى كل العناصر المهمة الضرورية لدقة التعبير وقوة البناء ، فأنت واجد فيه تحليلات واجمالا وأفكارا وعواطف بل وشطوطا وتخريفا فى بعض الأحايين ! وهو يجمع فوق ذلك كله المذهبين الواقعى (١) والابتداعى (٢) ويمزج بينهما بنسب معينة دقيقة • وعلى

(١) rèalisme

(٢) romantisme

العموم فان أسلوبه ثائر ضاحك ، لايتقيد دائما بالجمال ولكنه يمثل الحياة نفسهـا أصـدق تمثيل وأدقه • هذه النقطة الاخيرة ، وهى تمثيل أسلوب ديدرو للحياة تحتاج الى بعض الشرح •

ان أهم مافى الحياة ، هو ذلك النشاط ، الذى يبدو لأول وهلة لكل متتبع لحوادثها وصروفها • ولقد تنبه ديدرو لهذا النشاط فأعجب به ايما اعجاب ، وقال :

ان واجب الفنان الأول والأسمى أن يقذف بنفسه فى تيار هـذا النشاط ، وأن يترك لعقله بعد ذلك حرية التعبير عنه • ولقد أظهر ديدرو هذه الخاصية فى كتابه الذى سبق وأشرنا اليه :
Le Neveu De rameau.

***

« صالونات » ديدرو : ــ

قبل أن نختم هذا المبحث التحليلى عن حياة ديدرو وفلسفته وأدبه ، يجب أن نقول كلمة عن « الصالونات » التى تردد عليها ديدرو وأثره فيها وتأثره بها •

ان ديدرو هنا « فى الصالون » أو الثوى ، هو ديدرو فى أى مكان آخر • طريقته واحدة وأسلوبه واحد ، لم يغير منها ولم يبدل • فهـو كما سبق وشرحنا ، يتصيد فكرة جلية ويوسع فيها ويطنب فتصبح وكأنها فكرته : أنبتها عقله وأخذ يرعاها ويتعهدها حتى أينعت وآتت أكلهـا • ولديدرو شـأن أى شـأن أمام اللوحة المرسومة والتمثـال المنحوت . فهذه الفنون الحسـية تحدث فى نفسـه تأثيرات قوية .. أنها تفجر فى دخيلته البراكين الفوارة ، والانعكاسات والتخيلات • وتبقى هكذا تفور فى رأسه وتمور حتى تجد منفذا الى فمه • فتخرج فى قوالب الـكلمات النقدية المفسرة !

ومع ذلك لا يجب أن يشتد الباحث فى القسوة على ديدرو لهياجه وثورته • بل يجب أن نلتمس له العذر • فهو لايرى اللوحة أو التمثـال بعينه ، بل بعواطفه الحادة النشطة ثم يأخذ فى شرح مارأى •وهو قبـل أن يبدأ فى الشرح ، بل وفى أثناء الشرح نفسه ، يضع أمام أعيننا اللوحة المرسومة بعد أن يضفى عليها مايشاء من انعكاسات نفسـه ، وافرازات عقله وهو قادر على أن يعطينا جوهر مايرى من (الفن الحسى) فى خمسة أسطر أو أقل • هذا يدلنا بوضوح على مقدار عبقريتـه فى نقـد فنى الرسم والنحت •

بقى أن نقول ان « صالونات » ديدرو قد أنتجت علاوة على النقد الفنى ، ما يمكن أن نسميـه (صحافة الفن) • فديدرو ، بخوضـه فى موضوعات الرسم ، ونقده لهذا الفن من ناحية الظلال والألوان ، ومن ناحية امتزاجهما ونسبة هذا الامتزاج • وكذلك بنقده لفن النحت بأسـلوبه

الادبى الرفيع قد قرب بين الفن والادب ، بعد ان كان كل منها بعيدا عن الآخر كل البعد . فكان أهل الفن يعيشون فى عالمهم الخاص ويموتون فيه، أما رجال الفكر والأدب فكانوا يحبسون أنفسهم فى أبراجهم العاجية ولا يغادرونها أبدا . وكانت الصالونات تخضع لهذا النظام وترضخ له . فمدام « جيفرين » كانت تفتح أبواب صالونها فى أيام خاصة للأدباء وفى أيام أخرى للفنانين .

فجاء ديدرو وقلب كل هذه الأوضاع . فقد أخذ يتردد على متاحف الرسم ، ويجادل أهل الفن ويجعل أفكاره وآراءه تحتك بنظرياتهم . وهكذا كان ديدرو أول من فتح نوافذ الأدب فأطلت على عالم الفن . ولقد تقوى هذا الاتصال بعد ذلك ، واشتدت الصلة بين الفن والأدب فساعد ذلك على قيام الثورة الرومانتيكية .

جورج لويس دى بوفون

(١٧٠٧ - ١٧٨٨)

عناصر البحث

أولا ـ لوحة حياته .

ثانيا ـ شخصية بوفون ، وقيمة انتاجه العلمى .

لوحة حياته : ـ

ما أعجب أمور الحياة ، وما أغرب حوادثها !!

يولد العبقرى العظيم ، فيجهل الناس أمره ، ولايشعر بمولده أحد . ويبقى هكذا نكرة لافرق بينه وبين غيره من الناس الى أن يأمر القدر . حينئذ فقط تكشف العبقرية عن نفسها وتزيح الاستار الكثاف عن جوهرها الخفى ، وكنهها المستور . فيسود مجدها . ويخلد ذكرها . وهنا يبحث من يعنيهم أمر العبقريات فى ظروف تفتحها . ومواجهتها للحياة ، وتأثرها بها . ثم عن الرياح العاتية ، والأعاصير المجنونة المعربدة التى واجهتها ، فاستطاعت الصمود أمامها ، والوقوف فى وجهها حتى تعبد لنفسها الطريق الذى يوصلها الى المستقبل المجهول !

ولد جورج لويس لكلارك كونت دى بوفون عام ١٧٠٧ والجو ساكن والطبيعة هادئة نائمة ، والقدر فى شغل عن أمره ، فلم يقدم بعض الامارات التى تدل الناس على قدوم رجل عظيم .

كان أبوه عضوا فى برلمان « بورجونى » . له صولات وجولات فى ذلك الحرم المقدس الذى تحرق فيه البخور من أجل الحريات والخير العام .

فنشأ ابنه على غراره يحب الحرية ويقدسها : يحب الحرية فى القول ، والعمل ، والبحث . ومن المعروف أن حب الحرية ، والشغف بها يحبب الى الانسان الأسفار والتنقل ويجعله ينفر من الاستقرار والجمود فى المكان ! ولهذا السبب نرى بوفون يؤمن ايمانا صحيحا بتلك الحكمة القائلة : « الكون سفر لم يقرأ منه غير صفحته الاولى ذلك الذى لم ير الاوطنة فليسافر اذن وليقلب صفحات ذلك السفر العظيم ، وليقرأ ماخط فيه من أعاجيب وغرائب توجه بوفون الى انجلترا ، وتنقل فى أرجاء الجزيرة ، وبذلك درس عن كثب حياة الانجليز ، وطابعهم الفكرى والعملى . لقد كان ينظر الى مايمر أمامه من حياة وجماد ، بعين العالم المدقق . لا بعين السائح الغنى الذى يمر أمامه شريط الحياة فلا يرى فيه الا الزخرف واللمعان ، ثم غادر انجلترا ! وسافر فى صحبة أحد النبلاء الانجليز الى بلد الفن والجمال .. الى ايطاليا مهد الرسم والنحت والشعر . وهناك ملأ روحه الخصبة وقلبه المتعطش بصور الفن الخالد المتدفق من منبعه الأصيل . ايطاليا اسم ساحر جذاب ، لبلاد ظلت مدى أجيال طويلة مقر حضارة سامية . هناك فى ذلك البلد الساحر اختلط بوفون بأبناء الطبيعة ... اختلط بأبناء ايطاليا الذين زودتهم الطبيعة الفتانة بالحب والشعر والولع بصنوف الجمال .

شغف بوفون ـ أول ماشغف ـ بالرياضيات ، فاستهوته معضلاتها ،

وأحب فيها ذلك النظام الدقيق الذى يشيع فى كل أبحاثها فأخذ يقرأفيها المؤلفات الطويلة ،ويعالج بنفسه الكثير من فروعها ولكنه سرعان ماانصرف عنها أو كاد ، وانكب على العلوم الزراعية ، وعلم الطبيعة . وهكذا استمر بوفون يتعمق ويتبحر فى دراسة هذه العلوم ومعالجة مسائلها ، وأخذ يضع فيها البحوث الطويلة القيمة ، حتى شعر أعضاء الأكاديمية العلمية بقوة هذه الابحاث ، وسداد الآراء والأفكار التى تشيع فيها فضموه الى أسرتهم ، وبذلك أصبح من علماء فرنسا المبرزين .

ولكن بوفون الطموح ، لم يقنع بما كسب من نجاح ، وما نال من شهرة وعظمة ، فاستمر فى نضاله الفكرى ، وثورته العلمية حتى فتحت أمامه أبواب الأكاديمية الفرنسية عام ١٧٥٣ . وهنا بلغ بوفون قمة مجده ، فبقى متربعا عليها الى أن مات عام ١٧٨٨ .

***

شخصية بوفون ، وقيمة انتاجه العلمى : ــ

اذا قارنا بين بوفون و « ديدرو » ــ وهما من أبرز شخصيات القرن الثامن عشر ــ وجدناهما على طرفى نقيض . فكل منهما يبعد عن الآخر تمام البعد ، ويناقضه تمام المناقضة . فحينما يقرأ المرء « رسائل » بوفون ، تتملكه دتسيطر عليه عاطفة بشوشه صحوة ــ ان صح هذا التعبير ــ عاطفة لايشوبها الاضطراب أوالقلق . ومبعث هذه العاطفة الهادئة ، هو مايصادف القارىء فى هذه الرسائل من الانسجام التام ، والاتساق الذى لايشوبه نشاز . وما تتضمنه من عواطف شائعه يحسها المرء فى حياته اليوميه ولكن لايقدر على ترجمتها الا المفكر الأريب . وكذلك يحس القارىء أنه قد تقمص روح الكاتب .. تلك الروح التى تخضع للنظام وتقدسه . وتلك الخاصية الأخيرة ــ الخضوع للنظام وتقديسه ــ هى التى مكنت بوفون وساعدته فى الوصول بأبحاثه الى نهاية طيبة ، ولذلك نراه دائما يتمسك بأهدابها ويعتز بها ، بل يستعذب الخضوع لها .

لقد كان بوفون نبيلا فى تقاطيع وجهه ، نبيلا فى حركاته الحسية ، من التفاتات واشارات .. نبيلا فى أسلوب كتابته ، وكذلك كان نبيلا فى شخصيته : فالنبالة قد انحدرت بحق فى أعراقه وتسلطت على روحه وفكره . ولذلك نراه قد امتاز بالصلابة الخلقية وتقديس الشرف ، ومن ناحية أخرى نجد نصيبه من الاختيال والغرور قد تقلص وكاد يتلاشى . كانت نفسه مسرحا لعواطفه النبيلة السامية فلم تستطع العواطف الضعيفة أو المنحطة أن تتسلل وتلعب أى دور على خشبة ذلك المسرح الفاضل .

كانت روحه العالية الرفيعة هى منبع عواطفه وأخلاقه ، تصبوغها فى قوالبها الذهبية ، وتدمغها بصوت الضمير الحى . ولذلك كان بوفون لايميل الى التصنع بل يترك نفسه على سجيتها لاتأتمر الا بأوامر الضمير

الذى يملى عليها أفعالها واعمالها . فاذا قلنا الآن ان فلسفته ، وأخلاقه وسعادته ، تنبع من عواطفه ، ومن حياته الروحية العميقة ، وقواه العقلية الجبارة فلا يحق لأحد أن يعجب ويدهش • لقد كانت حياته سلسلة من الأعمال المنسجمة أحسن انسجام وأبرعه •• انسجام العالم الذى كرس حياته للعلم والفكر والانتاج •

ابتدأ نجم بوفون يظهر ويتألق فى سماء فرنسا عام ١٧٣٩ وذلك حينما وقع عليه اختيار الملك ليكون مديرا عاما لحدائق القصر ، فى تلك الحقبة من حياته فرضت عليه طبيعة عمله الاتجاه نحو التاريخ الطبيعى ففتح نفسه للطبيعة، واتصل بها اتصالا مباشرا وأخذ يستوحيها أسرارها ويدرس مادتها الخالدة التى أتعبت عقول الفلاسفة منذ أن أتيح للانسان أن يفكر • وأخرج للناس مؤلفه الأول عام ١٧٤٩ • ان اعداد الاجزاء الاخرى الباقية من هذا الكتاب سيكون شغله الشاغل وعمله الوحيد خلال التسعة والثلاثين سنة الباقية له فى الحياة • ولكن باريس بمباهجها وملاهيها ليست بالمكان المناسب لاتمام مثل هذا العمل الجبار والوصول به الى بر السلام •

فليتركها بوفون اذن ، بل ليهرب منها فهذا هو اللفظ الصحيح فى هذا المقام وليذهب الى « مونتبار » فهناك يستطيع أن يستيقظ فى الخامسة صباحا ، ويغلق على نفسه أبواب مكتبه • فى صومعته تلك ، كان بوفون يقضى الساعات الطوال فى العمل الفكرى المتواصل يقرأ ويملى ويكتب . كان يملى أويكتب حتى الساعة التاسعة صباحا ثم يغادر الغرفة ليتناول أفطاره ، ويحلق ذقنه أو يشذب شعر رأسه • وفى التاسعة والنصف يعود اليها مرة ثانية فيبقى فيها حتى الثانية بعد الظهر ، فيتركها لتناول طعام الغذاء • وهكذا سارت حياته فى « مونتبار » حتى النهاية •

ان نقد انتاج بوفون لا يدخل فى دائرة بحثنا هذا فعملنا الآن هو تحليل شخصية الرجل ، ونحن اذ نتابع هذا التحليل يجب أن نصرف النظر ، ونضرب صفحاً عن ذلك النقد اللاذع ، والهجو المر الذى وجه لانتاجه •

عقل بوفون هو عقل العالم المفكر • فهو يتمتع بتلك الخاصية اللازمة للتفكير العلمى وهى الدقة والامانة • فهو ينفر •• بل يبغض المجردات ، والأسباب الغائية ، والترتيب الجامد ويقول عنها : « انها ثلاث منابع لا تفرز الا الخطأ » • وهو اذ ينظر الى الطبيعة لا يرى التفكك والتجزء بل يرى الكليات والمواد غير القابلة للتجزئة • ان الطبيعة هى مرآته الوحيدة التى تنعكس على صفحتها الناصعة البراقة حقائق الكون ، والتى يرفض بوفون باصرار أن تشع له غير تلك الحقائق الكلية الصحيحة . لقد سبق وقلنا أنه دائم النظر الى الطبيعة ولكنه ينظر اليها عن قرب يلاحظ ، ويجرب بطرق دقيقة بل متناهية الدقة • ولذلك نجده اذا تكلم عن مظاهر الطبيعة تكلم عنها كما يجدها فى الطبيعة •

فيصفها لك في حالة اضطرابها الشديد ، وقدرتها المجنــونة العاتيه أو انفرادها وانعزالها . ولذلك تجد وصفه دقيقا كل الدقة يؤثر في نفسك، ويأخذ عليك مشاعرك لأنه يطابق الواقع ، ويمثـــــل ما وصف أحسن تمثيـــــل .

ثم ينتقل بوفون الى الكلام على الظـــواهر الحيوانية ، فيقسمها الى مجموعات ويتكلم على كل مجموعة منها بتفصيل دقيق كما تعود فى كل كتاباته . ونحن لا يعنينا فى هذا المقام أن نتــكلم باسهاب عن منهاجه فى بحث وتحليل الظواهر الحيوانية . ولكننا مــــع ذلك سنشرح بايجاز طريقة معالجته لمجموعة خاصة من المجـــاميع الحيوانية هى مجمـــوعة «الحيوانات المفترسة والحيوانات المستأنسة» . يبتدىء بوفون بأن يقسم حيوانات المجموعة الواحدة الى وحدات ثم يتكلم على كل وحدة من هــذه الوحدات فيبين أصلها ومميزاتها .. الخ .. حتى اذا فرغ منها انتقل الى الوحدة التالية وهكذا . فمثلا نجده يقسم حيوانات المجموعة السابقة الى حيوانات « كبيرة » وحيوانات « صغيرة » ويدرس كل منها على حده .

يجب أن نشير هنا الى أن العلم فى عصر بوفون ـ أى أوائل القرن الثامن عشر ـ كان لا يزال فى دور طفولته عاطلا من صولته ، ومجردا من قوته . اذا عرفنا ذلك استطعنا أن نقـــدر عبقرية بوفون العلمية حينما نقرأ أبحاثه بعين العلم الحديث .

ان كل العناصر الوصـــفيه للتاريـــخ الطبيعى قد ضايقت بوفون أشد المضايقة لانه لم يكن يؤمن بالكثير منها وبالتالى لم يكن يطمئن اليها كمقدمات لابحاثه . وقد ترتب على ذلك أن انصــب اهتمامه على بعض الحيوانات دون بعض فمثلا نراه يهتم كثيرا بالحصان ، والنمر ، والاسد . ويهمل طائفة أخرى تدخل فى نطاق الحيوانات السابق ذكرها أعنى أنها من نفس الفصيلة : فصيلته ذوات الاربع . لانه كاد ييأس من دراساته لها مثل : الضبع ، والسنور ، والخنزير الذى يستوطن الدنيا الجديدة « أمريكا » والنمل وغيرها .

كان بوفون فيلسوفا قبل كل شىء آخر . ولذلك نراه لا يهتم بالافعال والظواهر الطبيعية على أنها مجرد أفعال أو ظواهر .. بل نجد نسبة اهتمامه بهاتقدر بنسبة ما تحمله فى جوفها من معان ، فهـــو يعتقد أن هذه المعانى ، والاضـــواء التى تشفها الظواهر والافعال تقدم لنا شرحا عاما لقوانين الوجود .

ان بوفون لا يهدأ ولا يستقر الا اذا اعتقد بصحة الفروض التى تتناول كيفية وجود العالم ، والتغييرات البطيئة المتتابعة التى يخضع لها عالم الجماد والحياة . ولذلك نراه ، يحشد حشـــــدا زاخرا من الظواهر والافعال ، ويحاول تكملة النقص فيها بأن يضع لها الفروض التى يطمئن اليها ويؤمن بها . ثم يقدم لناصورة دقيقة واضحة .. صـــورة علمية عن تاريخ العالم . فقد أوقفنا على تلك الاضـــطرابات الجيولوجية العظيمة التى انتابت العالم فى العصور المختلفة قديمها وحديثها ، وعن مقدار تقدم الحياة ، وكيفية ذلك التقدم . فرسم

لنا بريشته صورا رائعة عن الحياة البدائية المتواضعة ولوحات اخرى عن مقدار تقدم الانسان !! ان بحثه هذا قد جوى الكثير من الاغلاط ، كما ينقصه الكثير من الشروح والتفاصيل . كما أنه غص بالتأكيدات القاطعة الجازمة التى ان دلت على شيء فهى تدل على الجراة المتناهية .. تلك التأكيدات التى قد تبعد العالم احيانا عن الحقيقة . ولكن ذلك كله لا يمكن أن يحجب عن أعيننا قيمة الحقائق الكثيرة والآراء الجديدة العميقة التى تدل على خصوبة عقله وطيب خياله .

ولقد عارض بوفون الكثير من المذاهب التى كانت تعتنقها علوم الطبيعة ، والتاريخ الطبيعى مثل قانون « التغير » الذى كان ينادى به كل من يشتغل بالعلوم الطبيعية . ولكنه من ناحية أخرى ، أقر فروضا كثيرة بعد أن فحصهــا ، وسبرها بمخبار عقله . فنراه مثــلا يتردد طويلا قبل أن يعترف بالفرض القائل « بحقيقة الانواع الحية » لقد اعتنق آراء بوفون وأفكاره ونظرياته الكثير من علماء فرنسا ، وغير فرنســا . ويكفيه فخرا ان جيوفرى سانت هيلير ، ولامارك كانا من أتباعه وتلاميذه . فاذا عرفنا أن « لامارك » هو خليفة العالم الكبير « داروين » فى فرنسا استطعنا أن نقدر عبقرية بوفون ، ونضعها فى الذروة .

قلنا أن نظريات بوفون العميقة الواسعة ــ سواء اكانت مغلوطة او صحيحة ــ قد اثرت فيمن اتى بعده من افذاذ العلماء ، لانهم قد اتخذوها مقدمة لابحاثهم ، وبنوا على دعامتها نظرياتهم وفلسفتهم أما الاغلاط التى تورط فيها بوفون فترجع الى تصرفه فى الحقائق ، وبذلك كان حتما ان تنحرف النتائج التى يصل اليها عن الصــواب . ولكن ذلك ــ لحسن الحظ ــ لم يلازمه فى معظم أبحاثه فنحن نراه مثلا فى نظريته التى اسماها « تتابع العصور الجيولوجية » قد بلغ القمة فى دقة البحث ، ومتانة المنهج الذى سار عليه . لقد تمخض عقله عن هذه النظرية نتيجة لمشاهداته العينية فى حالة الارض الطبيعية . فهذه المشــاهدات قد أوصلته الى معرفة طبقات الارض الداخليــة ، معرفة علمية صحيحة .

ومن حسنات بوفون التى تذكــر له دائما أنه لم يدخل فى دائرة العــلم البحث أى نفوذ خارجى غريب . فأولا نجده لا يحاول مطلقا أن يحشر النفوذ الدينى فى النطاق العلمى . « فالله لا يلعب أى دور فى انتاجه ، لانه ليست له أية حاجة الى ذلك » . وبوفون كذلك لا تعنيه سر مدية الاشياء بل يقــذف بعيــدا بهذه المسألة العسيرة الحل . أما كل ما يهمه ويعنيه فى هذا الصدد ، هو أن هناك قوة قــد وهبت للمادة ، وأن تلك القوة هى التى تجعلها قادرة على التحول والتغير . هذه هى النقطة المهمة التى تهدف اليها ابحاث بوفون . وهو ــ نتيجة لذلك ــ ينكر ما يسمونه بالمعجزات ، والتوسط أو التــدخل الالهى ، ويؤكد ــ من ناحية أخرى ــ ظواهر القضاء والقدر ولكن هذا لا يعنى أن بوفون كان من الملاحدة « اللا دينيين » لا ! انه يمكن أن يوضع فى منزلة « بين بين » . ولقد وقف بوفون هذا الموقف لان الدين لم يكن من اختصاصه . لقد لاذ بأطراف الحياد ، فلم يدخل الدين ــ كما

سبق وأشرنا — فى دائرة العلم ، ولم يخلق من علمه آلة لتضرب أو تثلم الدين أو الكنيسة . ولذلك نراه حينما يعرض علينا علما لا يتوخى الا الحقيقة العلمية وحدها أما ما عدا ذلك فيهمله ، ويضرب به عرض الحائط . وهو نتيجة لهذا لم يهدف — فى كل ما كتب — الى البناء فى ناحية ليهدم ويخرب فى ناحية اخرى .

ان بوفون يطالب الطبيعة بأن تتفتح أمامه وتتجرد من كل أسرارها ومعمياتها حتى يتمكن من رؤيتها على حقيقتها . وهو اذا سألها قال : ما أنت ؟ وكيف أنت ؟ ولم يقل : هل « يوجد » الله فيك أو لا يوجد ؟ ولذلك نقم عليه الفلاسفة ، ولم يسامحوه لانه عاش للعلم ، وللعلم فقط .

لم يكتب بوفون ما كتب ، لكى يستأصل شأفة النظم الاجتماعية أو المعتقدات الاخلاقية . فهو قد مجد الانسان وآمن به على عكس الكثير من الفلاسفة والمفكرين الذين يحطون من قدره ، ويلصقونه بالحيوان ويلصقون الحيوانية به . لقد كون بوفون عنه فكرة عالية سامية وعزله فى الطبيعة عن بقية الاحياء ، ليجعله السيد الاعلى على بقية الكائنات لانه هو الوحيد القابل للتقدم والرقى لذاتيته الخاصة وقدرته على التسامى ولانه مشبوب الحاجة دائما ، عريض الخيال واسع الآمال فى تشكيل مواد الطبيعة وتنويعها ، واستخدامها لخدمته ومنفعته ، ونحن حين نستعرض الكائنات التى تسكن أرضنا نراه فيها ذا نفوذ : ففيه وحده يمكن أن تسكن العبقريه ، وتستطيب سكناها وهو لهذا كله العامل الوحيد الفعال لتقدم الانسانية . يقول بوفون أن الانسان هو الكائن الحى الوحيد الذى خلق ليخضع لمذاهب الاخلاق المختلفة ، وليجد السعادة فى ذلك الامتحان المستمر الذى تقدمه له حياته الروحية !

لا يجد الباحث — فى كلام بوفون السابق — ذلك « الرجوع الى الطبيعة » بالمعنى الذى يعظ به الفلاسفة ، انه يعتقد كما يعتقدون بالتقدم والرقى ، ولكن طريقته فى ذلك تختلف عنهم تمام الاختلاف . ويمكننا تعليل ذلك بسهولة ويسر اذا وضعنا نصب أعيننا عقل بوفون : ذلك العقل العلمى الذى تعود على دراسة العصور الجيولوجية . ومميزاتها وخواصها . ذلك العقل الذى يؤمن بالتغير الهادىء ، والانقلاب البطىء فى قوانين العالم لانه رأى ذلك ، وآمن به فى دراساته الجيولوجية ، وهكذا تخلص من تلك الحمى القاسية العربيده ، وتعود على الصبر والاناه ونبذ جانبا الثورات العقلية والغرور الطفولى الساذج ، والآمال السهلة ، نبذ كل تلك العناصر الضارة لعقل العالم ، والتى كانت متفشية فى عقول معاصريه ولهذا نراه لا يعتقد بالانقلابات الفجائية التى تجدد حياة العالم . وبأن لمسة اليد فى مقدورها أن تسطر تاريخا جديدا أو تمنح السعادة الكاملة !! .. أى انه لا يؤمن بالطفرة وما تجره وراءها من نتائج . أما الصورة الصحيحة التى يؤمن بها ويقدمها لنا على أنها هى السبيل الوحيد المؤكد لتقدم الانسانية ورقيها ، فهى على نقيض الصورة الاولى أى انه يعتقد أنه لا تقدم للانسانية ، ولا رقى الا بعد حدوث تغيرات بطيئة تدريجية غير

مشعورة كما حدث تماما فى الحركات الجيولوجيه التى تعاقبت على العصور الجغرافية .

لقد قدم بوفون خدمات جليلة الشأن ، عظيمة القيمة للعلم والادب . أما خدماته للعلم فتتلخص فيما يلى : حرر بوفون العلم من العناصر الخارجيه الغريبة . فنراه قد خلصه ، وفك أسره ، من أغلال الدين وأعاصيره ، ولكنه فى نفس الوقت صدعته التيارات «اللا دينية» و « اللا أخلاقية » . تلك التيارات التى شغفت الفلاسفة ، وملكت عليهم مشاعرهم ، فجعلوها شغلهم الشاغل ، وأطنبوا فيها القول وأسهبوا والتى تسربت من دائرتهم الى دائرة العلم ، فامتزجت بجدوله العظيم وجرفت أمامها عقول العلماء المعاصرين لبوفون .

اما خدمته الكبرى للادب : فهى فتحه ميداناجديدا ، واستكشافه ارضا خصبة عذراء تصلح لفأس الاديب ومعول الفنان . لقد قدم للادب مادة خام ، غنية بعناصرها ، ووضعها أمام عين الاديب ، وتركها له ليشكلها فى قوالب أدبه وفنه ، ويأخذ منها ما يرتضيه ذوقه ومزاجه .. قدم للادب « التاريخ الطبيعى » فتقبله شاكرا لانه كان فى أمس الحاجة اليه من قديم الزمان .

ان كتابات بوفون فى العلم ، قد حببته الى الكثيرين منمعاصريه . فنحن اذا سرنا معه فى دراساته وابحاثه ابتعدنا كل البعد عن « علم الطبيعة الفكه » الذى عالجه وشغف به « فونتينل » والذى أصبح فى أيامه وأيام تلاميذه من بعده يكون جزءا من تلهبات الحياة الدنيوية . لم يكن بوفون يكتب علما فكها كفونتينل بل كان يكتب علما « بحتا » ، ولكنه رغم ذلك استطاع أن يصل الى قلب القارىء فى نفس اللحظة التى يصل فيها الى عقله . وذلك لانه كان يتمتع بموهبة الممتازالقادر على اخضاع الاسلوب للفكرة مهما سمت وعظمت . ولكن ذلك لا يعنى أن بوفون قد اصطنع الاوصاف الفاخرة ، والكلمات الفخمة الطنانة ، والعبارات المنمقة اللينة التى يعمد اليها الاديب الفنان لا ! فاسلوب هذا شأنه قد يخفى الحقيقة العلمية تحت أغلفة أدبية وقوالب فنية وأفكار أخلاقية ، فيصعب على القارىء تصيدها من تحت هذا الجبل الشامخ .

لم تكن الزخرفة والتنميق اذن من مميزات اسلوب بوفون . واذا وجدت فى مقالات له أو كتب فمرجعها الى أعوانه فى التاليف مثل « جينو دى مونتيار » أو الاب بكسون ، فالاول كان يتفنن فى تنميق الاسلوب وزخرفته أما الثانى فكان يضفى الاوصاف الخلابة على الحيوانات كالبجع وغيره . ولذلك جاءت بعض الفصول فى أبحاثهم المشتركة عن الحيوانات ، تشبه من عدة وجوه « أساطير لافونتين » وهكذا لا يستطيع القارىء الباحث أن يجد بوفون فى مثل هذه الابحاث .

ولكنه اذا أراد أن يقابله وجها لوجه فليبحث عنه فى « نظريه الارض » و « نظرية الطبيعة » . فهنا نجده على بساطته . لانالفكرة التى يعالجها عميقة كبيرة تكفى خياله وتشبعه . ولهذا فهو لا يحتاج

الى أى عنصر خارجي لتنشيط هذا الخيال وتحريكه . ودفعه الى العمل والانتاج • وكذلك يسيل أسلوبه المعبر عن هذه الفكرة أسلوبا بسيطا هادئا منسجما لا يحتاج الى الزخرف والتنميق أو التصنع والتعمد • هو يقدم لنا اذن ، بأسلوبه هذا ، ما يمكن ان نسميه « بالفصاحة العلمية » المشرقة ، تلك الفصاحة التى تزيد من « حياة » الفكرة وتقويها ، وهذا هو نفس الاسلوب الذى جرى عليه بوفون فى مقالته التى قدمها للاكاديمية الفرنسية ، فناقشتها ، وقبلته عضوا من أعضائها الخالدين •

كان اميل فاجيه المؤرخ الفرنسى الشهير محقا حينما قال : « ان بوفون وروسو من أشعر شعراء العصر .. » أما جوستاف لانسون فقد وضع بوفون فى مرتبة أعلى ، واسمى من مرتبة روسو . فبوفون قد عالج لونا من الشعر لم يعالجه روسو ولم يلتفت اليه وهو « الشعر العفيف الشريف » . « وعصور الطبيعة » لها نفس الجمال والروعة التى تتمثل فى الكتاب الخامس المسمى « De natura rerum. لقد رسم بعض العلماء لوحات للطبيعة ولكن هذه اللوحات كانت لا تمثل الا بعض مظاهرها ولذلك جاءت لوحاتها محدودة ناقصة تتأرجح فى الفضاء اللانهائى ، والزمان السرمدى . وذلك لانهم تأثروا بأرواحهم وأفكارهم وهو يرسمون هذه الصور ، فانعكست على اللوحة وامتزجت بالرسم ! أما بوفون ، فهو وحده الذى أعطى للطبيعة حقها كاملا غير منقوص . وذلك بأن أعطاها كل عمقها ، ودرسها بعقله الفلسفى البعيد عن العواطف والمؤثرات الخارجية . وهذا يفسر لنا سهولة تقبل القارىء للمادة التى يقدمها له بوفون . فهذا الرجل الذى رأى بواسطة قوة غريبة قاهرة استمدها من خياله ، التغيرات التى انتابت العالم قديما تمكن — بطريقة غريبة كذلك — أن يصب أفكاره هذه فى أذهان أهل عصره .

لقد خلق بوفون من العناصر التى تقيد المجتمع ، ومن الذوق المعاصر مقياسه الذى يقيس به كل ما هو خير وجميل . ولذلك يجهر قائلا : « ان كل ما لايمكن استخدامه لنفع الانسان فهو ناقص ! » ولذلك أيضا نراه لا يرى الا القباحة حينما تتمثل الطبيعة فى حالتها البدائية البسيطة ، الساذجة المستوحشة .

وهكذا ، اصبح من الطبيعى اذن ان يفضل بوفون الحقل على الاجمة . والحديقة على الغابة . وبمعنى آخر يفضل النظام .. وربما كان من حسن طالعه أن تأصلت فى نفسه شهوة النظام هذه ، والا فهل كان من الممكن أن يتذوقه أهل عصره ؟ !!

سانت بف

(المتوفى عام ١٨٦٩)

عناصر البحث

ســانت بف : الشــاعر

- **أشعار جوزيف ديلورم .**
- **التعــزيات .**
- **أفــكار اغسطس .**

قدم لنا مؤرخو الادب الفرنسى ، لوحة رائعة جذابة ، تمثل «لامرتين» شاعر الحب والجمال وهو يقرا « البحيرة » لجماعة من قدماء المهاجرين والرحاله الذين يزينون رءوسهم بالشعور المستعارة ، وأقدامهم بالجوارب الحريريه الثمينة ٠ وظهر فى اللوحه كذلك جماعة آخرى تتكون من رجال قد وخط الشيب رءوسهم ولحاهم وبدت على صفحه وجوههم تعاريج الزمان وتضاريس العمر الطويل ، وكانوا يرتدون أثوابا قاتمة وقورة تناسب مظهرهم وتتلاءم مع سنهم !

وكانت هذه اللوحة مؤثرة بديعة ، ولكنها لا تخلو من التباين والتناقض ٠ ولا يصح لنا الآن أن نضيف أن السامعين قد تأثروا ، وتحركت نفوسهم من عذوبة الشعر أو سحر الطرب ٠ والا أصبحت هذه اللوحة قليلة التصديق ٠ فلقد وجد هؤلاء أن « فلوريان » و « بارنى » سزان هذا الشاعر الشاب ٠ ولقد انفضوا من حوله ، وذهبوا لشأنهم وهم يقولون — من غير شك — أن شعره سيسلك نفس المسلك الذى سلكته قصة « آتالا »(١) وغيرها ٠ وهذه هى طبيعة الناس فى كل مكان ٠ فهم لا يحبون ، ولا يطالعون الا للشعراء الذين بزغت شموسهم فى أيام شبابهم أو طفولتهم ، أما الشاعر الناشىء فلتقرأه الاجيال القادمه اذا رغبت ! ٠٠٠

ولكن حينما ظهرت « التأملات » عام ١٨٢٠ ، أعجب بها كل شاب و ٠٠٠ بكى ، ولم يجد أى كتاب آخر ، مثل ما وجد هذا الكتاب ٠ لقد أغرق الرجال فى خضم لذيذ ، أما النساء فقد أحببن كلهن مؤلفه الشاعر الشاب ٠ ثم تحطمت طلاسم هذا السحر ، وانطلقت الالسنة ، وثار بحر الشعر وأخذت أمواجه تتلاطم فى قوة وعنف ، وتنتشر وتتدفق فى كل مكان فظهرت « الاشعار القديمة والحديثة » لالفريد دى فينى » ثم قصائد وأغانى « فيكتور هيجو » وكثير من الشعر الجيد الحديث لغيرهما من شعراء العصر ٠

وفى وسط هذا التفتح العجيب للعبقريات الشعرية رأى هذا القرن بين جماعة المعجبين شابا شاعرا كله أمل فى المستقبل ٠ لقد كان متحمسا وثابط الهمة فى وقت واحد ! لقد أصابه اليأس القاتل ، ولم يتصور أن فى استطاعته أن يرفع صوته ، ويطلق حنجرته ، فيسمع الناس انشاده بين تلك الاصوات الرخيمة الكبيرة ٠٠٠ السعيدة ٠ وكان هذا هو الوقت الذى جعله يتأوه بآهات الزمن القديم :

لن نذهب بعد ذلك الى الغابة ،

فأشجار الغار قد قطعت ٠٠ !

---

(١) قصه بديعة لمؤلفها « فواسوارينيه دى شاتوبريان » ٠

وفى الواقع كان من الصعب على شاعر ناشىء جديد فى عام ١٨٢٦ ، أن يدخل تلك الحلبة الكبيرة التى تصول فيها وتجول عبقريات شعرية فذة · ويجد لنفسه طريقا يوصله الى قمة المجد والشهرة · لان كل الطرق العادية – وهى الطرق الوحيدة التى توصل المرء الى المجد والشهرة – كانت قد ازدحمت بتلامذة لامارتين وفيكتور هيجو ·

وكل الموضوعات التى كانت تملأ فى ذلك الوقت أدمغة الناس وعقولهم مثل : نابوليون ، وسقوط الملكيات ، والحب الحزين ، والتدين العاطفى ·· كل تلك المواصفات طرقها الشعراء ، وأجهدوا أرضها بمعاول أفكارهم وفؤوس أذواقهم ·

ولكن كان يوجد فى وسط هذا الزحام فجوة فارغة لا يستطيع أن يملأها الا الشاعر المرهف الحس ، والقوى الغريزة ، المتفتح القلب ، الذى يعرف جواهر الاشياء وزبدتها ويستطيع أن يعالجها بدقة ولطف شاعر له نصيب « هوراس » وحظ لافونتين ، أو ربما أكثر من ذلك قليلا · ولكن هذا الشاعر اذا جاء ، فلن تكون أمامه فرصة كبيرة تساعده على الظهور ، وقطع طريقه الى الامام ·

من المؤكد أن الشعب الفرنسى يحب الشعر ويمجد الشعراء ولكنه يحبه على طريقته الخاصة . فهو يتمسك بذلك اللون الفصيح الذى تشيع فيه الفخامة الرنانة المزركشة القزحية الالوان فمنذ الثورة الفرنسية أصبح الفرنسى يحب المغالاة والتفخيم الى أقصى حد · فهو لا يهتز ولا يطرب من العواطف العميقة بل من الكلمات الرنانة المجلجلة ، وذلك لان شاعرية الاشياء تنقصه وتغيب عن ذوقه · هو يحب اللون الدرامى من الادب ·· يحب ذلك اللون من الشعر الذى يحفظ ويلقى من أعلى المسرح· أما باقى ألوان الشعر فمهضومة الحق مسلوبة الروعة . وأخيرا يمكننا أن نشبه الفرنسى – من ناحية حبه للشعر – بالهواة من الموسيقيين الذين لا يفهمون غير الموسيقى الحماسية الحربية ، أى أنه فى كل المناسبات العملية والفنية والادبية الخ ·· ·يلزمه « المارسييز »(١) ·

ومن وسط هذا الجيل : ابن بونابرت والثورة الفرنسية ·· ذلك الجيل الحر والملكى ، والمسيحى المؤمن بمسيحيته ، والمتشكك المضطرب فى ديانته · ذلك الجيل الذى من أهم خواصه التفاؤل والتطلع الى المستقبل بروح الثقة الوطيدة، نبع فى مدينة باريس فتى فى ربيع العمر واسع المعرفة ، عريض الآفاق يتوجع ويتألم من مرض خطير هو شدة الخجل، ولكنه كان رغم ذلك خلابا نافذ البصيرة ، مهتاجا ثائر الوجدان يتمتع بذكاء مفرط ، تختنق طبيعة الفهم فيه كل الطبائع الاخرى · هو أشقر ، قبيح الوجه ، متنافر المعارف ، شديد البنية قويها ، سوداوى المزاج غريزى الطباع ، متشكك يؤلمه هذا التشكك ويعذبه وهو حينما تدثر برداء الطلبة ، كان رجلا قليل العقيدة فقير الايمان ولكن كان له فى بعض الاحايين الخاصة ، لفتات حنونة حية نحو الدين ، ودفعات قوية شديدة نحو الحياة الباطنية النفسية · وقد كان يحب الادب قبل كل شىء ·

---

(١) نشيد فرنسا الوطنى ·

هدا هو سانت بف وهو كما نرى ليس بالشخصية البسيطة التحليل، السهله التشريح . لان شخصيته هده لم تكن متماسكة فى عناصرها او متساندة .

ولقد انضم عام ١٨٢٦ الى أسرة تحرير الجريدة الحرة التى تسمى « الجلوب » ، وذلك بمساعدة استاذه القديم لعلم المعانى والبيان مسيو « ديبوا » . ولقد استفاد الكثير وهو فى مضمار هؤلاء الاساتذة العلماء . ولكن عقله امتاز على عقولهم جميعا بمرونته ولينه ، وبالعمق الشديد فيما يفرزه من أفكار وآراء وبجوهره الادبى الرائق الصافى ، وذوقه الحالم الذى ينجذب دائما الى الالم والحزن . وهذا الحزن شىء أزلى قديم ، يمازج دائما صبح حياة الشاعر اى الشعراء جميعا ، وفى حياتهم تلك ، توجد فترة معينه تتكون فى خلالها عناصر أزمة لا تخلو من الكوارث النفسية الاليمه . لقد كان جوهر هذا القرن الذى عاصره سانت بف بئيسا يائسا . ولكنه كان يتحلى باطار جذاب خلاب ... كان يتحلى بآلاف الالوان القزحية التى تشعها الاحلام الشاعرية . فأى شىء أحلى وأمتع من كراهية الحياة وبغضها ؟ وما ضر المرء أن يقتبس ــ وهو فى العشرين من عمره ــ مذاهب بعض الكتب الجميله مثل « فرتر » (١) او « رينيه » ؟ لقد عرف الشعراء أن يزخرفوا أمزجتهم التى تميل قليلا الى الهوس والجنون ، ويجعلوها جميلة مقبولة ، وغير مضرة لغيرهم .

لقد كان سانت بف يشعر باخلاص هذا الشعور نفسه ولذلك نراه يبحث فى ظروف مولده البعيدة عن سبب هذه الحالة النفسيه فيقول :

« لقد فقدت والدنى أبى فى السنة الاولى من زواجها وكانت تحملنى آنذاك فى بطنها .. وهكذا كان حملها لى فى فترة الحداد والحزن . وهكذا ارتويت بل استحممت بالحزن وانا لا أزال نطفة فى الغشاء الجنينى . وأنا الآن أرجع ذلك اللون من الهوس الذى أصابنى فى أيام شبابى الاول ، وكذلك استعدادى الطبيعى للحزن الى حزن والدتى وحدادها ... »

هكذا شرح سانت بف حالته النفسية هذه ، وأبان لنا منبعها ، بكتابه هذا الذى بعثه الى صديقه مسيو دى « فاييبر » فى ٢٥ يونيه عام ١٨٦٢ .

ولكن كيف يمكننا أن نكشف ونضىء هذه الاسرار الخفية ؟ لقد طعمت أم أخرى نفس سانت بف بهذا المرض المنتشر .. «مرض العصر». ولكن من تكون هذه الآم الاخرى ؟ هى الثورة الفرنسية . تلك الثورة التى أوحت الى أبنائها هذا الحزن العظيم ، والرغبة فى الجمال العام اللانهائى هو مرض الشهية التى لا يمكن ارواء عطشها أو سد حاجتها أو اشباع نهمها . لقد قلبت هذه الثورة كل الحدود التى تحد وتحوط بمنطقة « الممكن » ، وأصبح القلق والتشكك وما يترتب عليهما من آلام قاسية وأحزان عميقة من الاشياء الشائعة غير المتناهاه .

ولقد شرح « تاين » هذه الظاهرة بوضوح فى كتابه « تاريخ الادب الانجليزى » فهو يقول فى الجزء الثالث من هذا الكتاب :

---

(١) قصة «الام فرتر» الخالدة للشاعر الالمانى الفيلسوف جوته .

« ... وهكذا ظهر مرض العصر ... قلق فرتر وفاوست ، ذلك القلق الذى يشبه تماما القلق القديم الذى كان يتملك الرجل ويثيره من مئات السنين . أريد أن أقول الملل من الحاضر والرغبة الملحة الشديدة فى عالم من الجمال السامى والسعادة المثالية والميل المؤلم الذى يهدف نحو اللانهائى .

وهكذا كان الرجل يتألم ويقاسى من الشك ولكنه مع ذلك يشك . ويحاول أن يمسك من جديد بأهداب اعتقاداته التى كانت تذوب بين يديه .. هذه هى طبيعة الظروف التى أحاطت سانت بف الصحفى ، الواسع الافق فى العلم والفلسفة والفن حينما ألف شعره الذى طبعه للقراء عام ١٨٢٨ .

لقد كانت هذه المقطوعات الشعرية عبارة عن لون خاص من الشعر الحزين الهادىء . ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، لكى يتمشى مع حالة الشاعر النفسية. ولقد مزج شعره الحزين هذا ببعض المقطوعات الاخرى التى تتجلى فيها الصناعة الشعرية بكل عناصرها ، وذلك حينما سمح للشاعر الشاب بالانضمام الى أسرة « نادى الشعراء » .

وكانت طريقته ـ لكى يعطى أشعاره هذا اللون المعقول والسحر المؤثر ـ هى طريقة التصنع التى تلجأ اليها « مريميه » فى مسرحيته «كلارا جازيل» . ولقد ابتكر سانت بف طريقة مبتكرة طريفة لتقديم كتابه هذا الى جمهور القراء . فقد قال أن هذا الكتاب هو من تراث شاعر شاب توفى على أثر اضمحلال قواه الجسمية من جراء مرض خبيث واسمى المؤلف « جوزيف ديلورم » . ولكى يصبغ هذه الخرافة بصبغة الحقيقة قدم المؤلف الحقيقى . كتابه هذا بمقدمة طويلة عن حياة المؤلف المزعوم وكانت الفرصة مواتية وجميلة ، للاعتراف صراحة وبوضوح تام عما يجيش بخاطره تحت هذا الاسم المستعار . وذلك لكى يعرض على العالم أجمع الافكار الثائرة ، والعواطف المتفجرة التى تفور وتغلى فى رأس أحد العصاميين الفتيان ... ذلك الذى كان يرى ويفهم كل شىء ... ذلك الذى لم يكن شيئا فى الواقع ، والذى كان يعيش على خمسة وعشرين سنتيما فى اليوم !

والآن يحق لنا أن نتساءل : هل كان جوزيف ديلورم معدا أو مجهزا بكل العناصر النفسية التى شاعت فى هذا العصر ؟ أى هل كان هو الآخر يعانى ذلك المرض المنتشر .. « مرض العصر » ؟ قبل أن نجيب يجب أن نميز فى شخصية جوزيف ديلورم هذا ، العناصر الشائعة والعناصر المنقولة وما يدخل فى تركيب الطبيعة الجوهرية فى أعماق سانت بف نفسه .

كان جوزيف ديلورم يشبه فى كثير من الوجوه أفراد عائلته الادباء: يشبه فرتر ، ورينيه و «أدولف» (١) وخاصة « أوبرمان » .

---

(١) بطل قصة بنجامان كونستان العظيمة .

لقد كانت كل حياته تقتفى آثر «سينا نكور» وتنحصر فى اطار تلك الكلمات التى قالها « انه لم يشعر بتعاسة صارخة ، ولكنه حينما دخل الحياة وجد نفسه يسير في طريق طويل يتبع الملل والاحزان والبغضاء • ولكنه بقي وعاش فيه، وتقدمت به السنون قبل الأوان، وانطفأ فيه سراج حياته ••• »

ولكن الجديد فى جوزيف هو أنه كان بورجوازيا حقا • فقد خلا تماما من عنصر السيادة ، هو بورجوازى فى حياته وفى عقله ، وسوف يكون شعره بورجوازيا مثله ، وسيتخصص فى رسم لوحة الحياة البورجوازية !

ولوحة حياة جوزيف قد رسمت بريشة فنان بارع • ولكن انقارىء اليوم ، لا يسعه الا الابتسام من ذلك السجل الذى دونت فيه حوادث بؤسه وتعاسته ، فهذه الحوادث وليدة الخيال يكسوها بطابعه ويلونها بألوانه الزاهية البراقة ، مثل شخصية صاحبها المخلوقة المبتدعه . فحياة الشخص الحقيقى — أعنى الشخص الموجود حقا — تقل عناصر الأضطراب فيها ، ويتلاشى منها العنصر الأسطورى ... أى تكون حياته بعيدة نوعا ما ، أو بعيدة تماما عن ذلك التعقيد الذى نشاهده فى حياة هذا الشاعر الشاب المزعوم ، هو طالب طب تسيل حياته فى اطار احدى المستشفيات الذى يكون هو فيها طالبا داخليا . تحميه وتعطف عليه جماعة من كبار العلماء . ولكن سرعان ما يصاب « بمرض العصر » فيبدو لأنظارنا قليل الرزانة فقير الأتزان .

« ... لقد قبل بعد جهد وظيفة بسيطة وأخذ يقوم بواجباتها، ثم نقل — بفضل مساعدة العلماء — الى وظيفة حرة ، فلم يتأخر فى ادخال عناصر العناية بعمله وحسن الانتباه له حتى يكون خالى الغرض، فيؤدى واجبه على خير وجه . ولكنه عد محميا .. ولذلك ثارت شخصيته النبيلة على هذا الوضع الأخير ... وكانت هذه الشهور الثلاثة أو الأربعة هى سبب هلاكه .

ان حالة هذا « الفرتر» الجديد هى حالة ملحوظة « ولكن هل اخترعها سانت بف لمجرد التسلية ؟ من المؤكد أن لا . فمنذ أيام جان جاك روسو الكبير المسكين أخذت بدعة الجور والتظلم والاضطهاد تخرب وتهدم أدمغة العامة . ولهذا فهذه الخطوط من حياة جوزيف دلورم قد أحسن تخيرها ، حتى يمكننا أن نقول أنها تلصقه بجان جاك .

لقد أحب ، ولكن على طريقته الخاصة ، وهى طريقة ليست بالبسيطة السهلة ، ولا بالعملية الشائعة . لقد كان محبوبا : تشفع له الأم ، وتنتظره الفتاه الشابه وصدرها يعلو ويهبط ، وفمها يقذف بالتنهدات الحارة . ولكن طبيعة عصره جعلته لم يرض عن هذه السعادة الجافة الخشنة . فكتم هذا الحب وسكت . وبقى منفردا وحيدا يخاطب نفسه صائحا : « أنا كالدلالة المعبرة التى ترتسم على الجبهة ! ».

ولم يبد على عمله هذا أى شىء من الأفراط الزائد عن الحد ولكن احد المعاصرين لجوزيف ديلورم ،هو رجل رزين متزن ، قص —كما يقول أناتول فرانس —على جماعة من أصحابه بعض الحوادث الغرامية التى

تخالت شباب جوزيف . قال ذلك الرجل ببساطة أن ديلورم كان يتنزه دائما تحت نافذة حبيبته الجميلة ، وفى يده جمجمة ميت وأضاف أنه حينما كانت النافذة يتأخر فتحها ، كان جوزيف يضع هذه الجمجمة فى قاع حقيبته ولا يخرجها أبدا بعد ذلك الا فى الظرف المناسب ! ولقد حدث أن استقبل سانت بف نفسه فى ليلة من الليالى وفى زمن هذه القصةالغريبة ، سيدة شابة ذات صيت واسع وشهرة عريضة . أعطته هذه السيدة رأس ميت للتشريح والدراسة . وكانت هذه الجمجمة يمكن أن تفتح بواسطة غطاء فى أعلاها يستند على محور متحرك . وكانت السيدة قد وضعت بداخلها خصلة من شعرها الجميل ، ورقعة من الورق كتب عليها : « يجب أن ترجع هذا الى .. »

ولكى ننتقل من حياة جوزيف ديلورم الى شعره ، نقول أن ذكرى هذه الرأس أو الجمجمة قد ورد فى رسالة مرسلة من سانت بف الى « فونتينى » . لقد وصف الشاعر فى هذه الرسالة حجرة حسنة التنسيق تقع فى دير مخرب مهدم . ويقول أنه قد وصل الى هذه الحجرة بواسطة سلم حلزونى ، فوجد الغرفة مضاءة .. يدخل اليها النور من نافذة تقع فى احدى زوايا الحجرة ورأى فى الحجرة أحد المقاعد القديمة المستطيلة ، ومنضدة صغيرة صنعت من خشب التنوب .

أوراق ، وملابس ، ولوحة قد ضاعفت ملامحها .

كانت فيما مضى عظيمة القيمة .. .. ..

وهناك فرشاة ، ناى ، وخنجر على نفس المنضدة ..

وقيثارة مشاولة الأوتار تسكن فى هيكل عظمى ...

ان كل الدلالات والامارات تجعلنا نلصق شخصية جوزيف ديلورم ببورجوازيى عام ١٨٢٨ . لقد قدمه لنا سانت بف على أنه من الاحرار المخلصين ، ولكنه من المعتدلين كذلك ، تماما مثل « أجست باربيه » كما ظهر فيما بعد بقليل فى « السباعيات » . لقد عاش جوزيف طويلا ورأى الكثير من الشخصيات الادبيه وهى تعمل ولذلك لما مات كان على شىء من الثقة وعدم الشك ! هذه الصورة تعطينا بوضوح طبيعة هذه البورجوازية ، التى أخذت تهيىء نفسها للظهور من زمن قصير .

أما عن المرض الذى مات بهجوزيف ديلورم فانه لم يمس سانتبف الذى كان يشبه فى كثير من الوجوه جوزيف ديلورم . ولكن جوزيف ديلورم يختلف قليلا عن هذه الشخصية المبتدعة . فهو يعرف تماما مايجب أخذه من الأشياء ، وما يجب تركه ونبذه . والذى — بعد أن وزن وحلل وقدر — رضى بسرور أن يعيش ، ويعيش طويلا .

كان هذا الشبح البورجوازى يشيع فى الحياة الادبية فيعجب به البعض ويحبه ، ويسخر منه البعض الآخر ويبغضه ولذلك نرى انشقاقا يحدث بين أفراد أسرة « الجلوب » فمسيو جويزو يصفه بقوله « فرتر البعقوبى المخاطر » . أما مدام « دى بروجلى فتقول هذا الذى لا خلاق

له » . وقال آخر – وهو صاحب حس مرهف – وهو يصيح ويتنهد :
« لو كنت قد عرفته لقدمت اليه عزائى » .

أما أشعار جوزيف ديلورم ، فهى تمتزج امتزاجا تاما بالعاطفة والألهام ، وتختلف وتتغير فى طريقة صياغتها . هى أشعار عادية ، وهذا هو طابع الجدة فيها . لقد كان سانت بف مجددا فى بعض النواحى ولكن الذى يهمه ويعنيه حقا هو الطبيعة الخلوية الطلقة ثم الرثاء والشكوى لقد كانت طبيعته وغريزته تدفعانه قدر الممكن بعيدا عن الموضوعات الخاصة المحدودة . فمثلا نراه حينما يتغنى بابطاليا يخاطب قروية ساذجة جميلة قائلا :

كيف لى بمن يحمل الى الذكريات القديمة ...
وذلك الفخار الأبدى الذى لا أعتقد فيه !
ولكن قصى على طويلا أيتها (النابولية) الشابه
الأسماء الموسيقية لأشجار هذه الغابة
وسمى لى الربوات مع كل عين ماء ...

وهو يريد أن يعرف آلاف التفاصيل الأخرى ، وآلاف الأشياء الصغيرة ، التى كل واحد منها تعنى شيئا ، ولكن باضافتها بعضها الى بعض ترسم أمام أعيننا الحياة كلها ! هو يريد أن يجعل قصائده وأغانيه حنونه لينة ، ولذلك نراه يخضعها لسلطان القلب والعاطفة . وذلك لأن القصائد والأغانى ، كانت قبل ذلك ، تشيع فيها النغمة الوطنية الملوكية .. كانت دائما مشبعة بالحماسة الشعبية المتفجرة كماء النافورات ، ولذلك نراه يقول لداود المثال : « متى ينطفىء نار موقدك ؟ »

أما فى أشعاره الحزينة فهو يشعر بالراحة والهدوء ، وينتقل بين الأفكار والتفاصيل فى سهولة ويسر لم يقدر عليها لامارتين أو الفريد دى فينى أو هيجو . ويرجع ذلك الى أن سانت بف كان قد اختار أساتذته ونماذجه فى الفن والشعر . فقد قيل أن « فيلاريت شاسل » – المفرق حتى أذنيه فى أدب الشمال – قد دله على كل هؤلاء الشعراء الأنجليز العباقرة ، التى تتكون عبقريتهم من عنصر ممتاز يميزهم عن غيرهم هو عنصر البساطة النادرة . عرفهم سانت بف اذن وأحبهم جميعا ونسج على منوال أكثرهم مثل شيلى ، و «وويردزويرث» وكذلك « كراب » ، « وكوبر » . وهم هؤلاء الشعراء أصحاب الفكر الحر النقى الطبيعى ، الذين خلقوا شعرا « الرجل الجديد » ، شعرا مطبوعا بالعواطف اللينة الحديثة . وسانت بف لم ينكر أو يجحد مقدار تأثره بهم . فنراه يكتب عام ١٨٦١ الى الأب كونستانتين روسل يقول :
« للانجليز تراث أدبى شعرى يفوق تراثنا . فهو صحيح سليم ودسم غنى ... وأنا لم أصبح شاعرا الا لأنى من النهيرات الصغيرة التى تنبع من هذه البحيرات الشعرية الجميلة الهادئة .. « لقد كان نهيرا صغيرا

كما يقول . ولكنه كذلك - فى بعض الآحايين - من الأنهار الناضجة التى تبعث دمدمة رائعة محيرة ... دمدمة لا يمكن أن ينساها المرء أبدا .

والآن نقدم للقارىء بعض نماذج من شعره الذى نبع من البحيرة الانجليزية الهادئة . ولكننا ننصح له أن يرجع الى الأصل ليقرأ المقطوعات كاملة . انظر الى هذا الوصف الحبيب :

أرى شجرة الكرم تنساب على سقفى الاردوازى .

.. ..

ومن نفس هذا المنبع الطبيعى ، منبع البحيرة الجميلة ، تبرز لنا هذه الصورة الطبيعية الرمزية :

لقد غسلت الشجرة أرض الأزهار التى لم تكد تتفتح

.. ..

وايضا هذا التشبيه الغريب غير المنتظر ، الذى يفتح فجأة فى جوف اللوحة المرسومة بريشة الشاعر عالما مثاليا جذابا وهو خاص بأمرأة جميلة قد مال رأسها الى الأمام .

وفى خلال هذا الشعر الأشقر ، تاهت هذه الأيدى البيضاء .

كما سبح البجع على سطح الماء الشفاف

.. ..

وهكذا يجد المرء أكبر لذة فى استظهار هذا الشعر الحنون المعجز كمثل قصائده التى ترجمنا بعض أبيات منها ، كمثل المقطوعة التى تبدأ بقوله :

لقد عرفته دائما مفكرا رزينا

.. ..

أما مالم يتأثر كثيرا بالعنصر الانجليزى عند سانت بف فهو ذوقه وفنه فى رسم وتخطيط رغبات النساء الخالية من المغالاة والحدة الثائرة وبطريقته الطريفة فى المداعبة الماجنة ، ورفاهية اسلوبه التى تبلغ الذروة . وتلك المميزات جميعها تتجلى فى قصيدته التى تغنى فيها « بروز » ذات الشعر « المنفوش » الطايق .

لم يكن كل شىء رائعا صافيا فى جدول سانت بف الذى ينبع من البحيرة الهادئة السطح الجميلة المنظر . فهو بعيد عن نهير « لوس » حيث كان كوبر يتنزه فى صحبة أحلامه الطفولية الزاهية البريئة ، وعن غرفة العمل القائمة فى طريق « السيد الامير » حيث كان الكثير من المتفائلين يضطربون ويتحركون . ان جوهر سانت بف الحقيقى هو جوهر عاص مضطرب ... ومعذب !

ونحن نجد ضمن أشعار جوزيف ديلورم مقطوعة فريدة ، قد

لاحظها كل القراء ، ووقفوا عندها طويلا . ولذلك يجب أن نقف — وتقف معنا أيها القارىء — قليلا لنكشف السر ونرفع الغطاء . ونعنى بتلك المقطوعة الفريدة ، تلك التى أسماها سانت بف « الأشعة الصفراء » .

لقد قرأ سانت بف فى أحد الايام فى خطابات الآنسة « فولاند » وصفا رائعا لمشاهدة جديدة خصبه . ولقد كان هذا الوصف الرائع يشبه — من بعض الوجوه — ثرثرة ديدرو انعظيمة القيمة ثرثرة ذلك الرجل الذى « عرض حياته لكل ريح » .

وهاك ترجمة بعض ما جاء فى هذه القطعة التى وقف عندها سانت بف متأملا مفكرا : « شىء طبيعى واحد يمكنه أن يحمل العقل على الاندماج والامتزاج فى (لانهائيات) من الأشياء المختلفة . فلنأخذ لونا الأصفر مثلا . الذهب أصفر ، والحرير أصفر ، وقشة التبن صفراء ولكن المجنون وحده هو الذى لا يلاحظ التغير .. هو يأخذ قشة تبن صفراء فى يده ، ويراها ساطعة وهاجة ، فيصيح أنه قد قبض على خيط من خيوط أشعة الشمس ! » —

وهنا يتخيل سانت بف نوعا من المراثى الشاكية الحزينة ويجمع فيها ذكريات وأحلام ويربطها جميعا بهذا الخيط الأصفر الذى أبانه ديدرو ، وتكلمت عنه فولاند .

فهو يرى خيطا من خيوط الشمس المائلة الى الغروب ، الذى يتسرب فى خجل وحياء ، الى غرفته عبر نافذتها المفتوحة . فيجرى فى خياله شريط من الصور التصورية مثل : الكنيسة التى كان يرى فيها أثناء حداثته ، وأيام طفولته ، المصابيح الصفراء ، والجبهات المصفرة للقساوسة الذين تقدمت بهم السن · ثم ذلك العاج الاصفر المطعم به صليب البيعة . وكتاب القداس أو كتاب الترتيل الأصفر الذى يغرى كل متدين مؤمن · ثم الشموع الصفراء التى أحاطت بسرير عمته وهى تحتضر وتلفظ انفاسها الأخيرة .

أن هذه الأفكار أثناء تتابعها فى خياله ، لا تجد فى طريقها عقبة تعوقها ، بل تنساب فى سهولة بسيطة كما عرضناها . ولهذا تبدو طبيعية وتكون ما نسميه « بالحلم الأجبارى » . ولكن هذا التتابع فى الأفكار لا يحدث فى الواقع بتلك الكيفية . فنحن لا نترك عقلنا ينتقل من فكرة الى أخرى بهذه الطريقة القياسية الهندسية حينما نرى اللون أو نشم الرائحة . بل نحن نحاول أن نتبع ذلك الخيط الذى يربط الأفكار بعضها ببعض ، نتبعه الى نقطة معينة . فحينما يظهر لنا هذا الرباط أو الأرتباط بمعنى أدق ، لا نسترسل معا الى نهايته بل نقطعه ونقف عند حد محدود . أما سانت بف فعلى العكس من ذلك تماما فهو يسير مع الخيط الى النهاية ، لأنه مرشده ودليله . وهو حينما يلاحظ أن هذا الشىء أصفر ، وأن هذا الشىء أصفر كذلك ، يخاطبنا وكأنه يقول « أترى كيف أتنقل بحذاقة وفطنة من هذا الأصفر الى ذلك الأصفر » . وهو فى حالته هذه ، يشبه أو يقلد ذلك الرجل الذى تكلم عنه ديدرو .. ذلك السفيه عديم العقل الذى لا يلاحظ تغير أفكاره وذلك المجنون الذى يتقمص كل فرد منا فى ساعة خاصة معينة !

ولما كان ذلك الكتاب الضخم قد فتح عن قسم «الشعاع الأصفر» فيجب الا نقلب الصفحة قبل أن ندلى بملاحظة أخرى . ذكر الشاعر وصفا لحفلة دفن عمته العجوز ثم اخذ يفكر :

وهى مع ذلك تحبنى ... وأمى كذلك .

وستموت أمى هى الأخرى !

هذه الفكرة لابد أن تصدم القارىء ولكنها لا تصدر الا عن الشاعر الرثائى المتوجع . واليك الظروف التى أوحتها اليه . ماتت مدام سانت بف فى ١٧ نوفمبر عام ١٨٥٠ وهى فى السادسة والثمانين من عمرها ونحن نستطيع أن نقدر مقدار الحزن العميق الذى كابده من فراق امه الحبيبة ، اذا قرأنا نبذة من هذا الخطاب الذى أرساه سانت بف الى الأب بارب . يقول الشاعر فى خطابه : «لقد تركتها (يعنى أمه) فرحة ضاحكة فى الساعة السادسة والنصف .. وبعد نصف ساعة دهمنى الحزن عميقا شديدا ، وانتشر فى سرعة هائلة حتى غمر محيط حياتى كله لقد كنت اعتقد اننى وحيد قبل ذلك ولكنى لاحظت اليوم فقط انى حقيقة وحيد فريد ، وأنه لا يوجد احد خلفى .. ولا أحد كذلك أمامى .. »

وهذه الفكرة قد سبق ووردت فى اشعار « فرانسوا فيلون »

لقد مات والدى

.. ..

وانا انتظر ، فوالدتى هى الأخرى ستموت

ولكن فرانسوا فيلون ولد فى قرن مظلم عبوس .. عصر « رقص القبور » ، ولم يكن يميل أبدا الى السهولة والنعومة ولقد كان شابا شقيا عربيدا ، ولكنه أظهر فى هذه الحالة الخاصة رقة قلبه ، وخصوبة خياله ، ونعومة تعبيره ، تماما مثل مقلده الحديث فهو اذا قال ان أمه ستموت ، واذا وقف عند هذه الفكرة ، فليس هذا لأن شعاعا مصفرا قد طاف بعقله . لا ، بل لأنه كان يفكر التفكير المسيحى وهو أن كل أبناء آدم قد ولدوا للموت . هذه الناحية المؤثرة لانجدها عند سانت بف ، وذلك لأن نفس المنبع الأنجليزى ، ونفس هذه المقطوعات الصافية التى تعنى بالعواطف الهادئة ، والتعبيرات الدقيقة ونعنى بها اشعار «جوزيف دبلورم » ، ينقصها الهدوء والاستقرار فى النغمات . فالتعبير فيها محدد كالفكرة نفسها . ولذلك نجد الشعر يتلوى ويلتف . ولكن يظل مؤثرا محزنا يبعد عن الخشونة والفظاظة . أن هذه الأشعار تشبه السائل المتخمر الثائر ذو انطعم الحريف ... ولكن هذا الطعم نادر الوجود !

يوجد فى مجموعة أشعار سانت بف الأولى قطعة مقفاه « من نوع اللزوميات فى شعر أبى العلاء » ان جاز لنا أن نشبه الشعر الأوربى بالشعر العربى . ومقطوعة أخرى من وزن جديد ، يتجلى فيهما العنصر « الابتداعى » . ومن أجل هاتين القطعتين هاجم فيكتور هيجو المحرر الشاب لجريدة الجلوب حوالى ١٨٢٧ .

وقد نشر سانت بف فى أعداد الجلوب الصادرة فى ٢ ، ٩ يناير عدة مقالات عن نظريات وأشعار فيكتور هيجو . وقد خلا نقده تماما من اللين والمجاملة فيما يختص بفلسفة الجمال فى المذهب «الرومانتيكى » . لقد أعترف لفيكتور هيجو « بموهبة عالية » ، ولكن هذه الموهبة قد أتلفها التفخيم والزخرفة . ولقد لامه على « مغالاته فى التشبيه » ، والشطط المبالغ فيه ، والمجازات العقيمة ، والخروج على جوهر الأصطلاحات ... الخ وهنا يشكر هيجو الناقد ويقول :يجب أن يصعد المرء عدة درجات أخرى لكى يستطيع أن يشغل منصب « البابا » !!

بعد أن نشر سانت بف « أشعار جوزيف ديلورم » أستطاع أن يحتل مكانا فى « ثوى الشعراء » ، وكان يجلس خلف فينى والرسام ، « بولانجيه » . واليك ما قاله فيكتور هيجو فى هذا الصدد منقولا عن أحد معاصريه :

« من بين الأصدقاء الذين كانوا لا ينقطعون عن الحضور ، كان اثنان يأتيان كل يوم تقريبا : مسيو لويس بولانجيه ومسيو سانت بف الذى كان محدثا لبقا ساحرا ، كما كان كاتبا ممتازا ... وكان يحدث بعد قضاء السهرة فى منزل شارع « نوتردام دى شان » أن يطلب كل منهما من فيكتور هيجو تلاوة الأشعار التى نظمها فى يومه أو يحدث أن يطلب فيكتور هيجو من سانت بف هذا الطلب ، فيضطر الى القبول وهو خجل . وكان هيجو فى نفس الوقت يحرض ليوبولدين الصغيرة وشارلوت على احداث بعض الضجيج عندما يكون سانت بف ماضيا فى القراءة . فترفض ليوبولدين كما ترفض شارلوت . وهكذا كانت تسمع الاشعار الطريفة « لجوزيف ديلورم » ».

لم يكد عام واحد يمر على ظهور جوزيف ديلورم ، حتى أخرج المؤلف فى ديسمبر عام ١٨٢٩ ، وتحت أسمه الحقيقى هذه المرة مجموعة جديدة من الأشعار ونفى بها « التعزيات » . وكل الكتاب ينشر عبق البر الصادق القوى لشخص فيكتور هيجو .

كان سانت بف فى تلك الحقبة من حياته يقاسى آلام رغبة شديدة .. رغبة التناول والزواج . ولهذا فان اهداء ديوانه هذا هو نوع من التوسل الخفى ، الذى لا يمكن أن نفهم معناه الحقيقى اليوم ونستطيع أن نقول كذلك انه كان فى تلك الآونة متصلا اتصالا روحيا متينا بمؤلف « كرومويل » ، ولكنه لم يقلده أو يتوخى طريقته . فهو لم يتأثر أبدا بذلك الأسلوب الوهاج ، وكان ينظر الى تراث العصور الوسطى الرومانتيكى على أنه من ألوان الوباء أو الطاعون الذى يجب اتقاؤه والبعد عنه . وديوانه هذا عبارة عن نوع من المراثى الحنونة . هى محادثات واستراضات ، ومطالعات ، أو حوادث أخرى أليفة ، تكون جوهر هذه المقطوعات التى أملتها يد الوحى الخفيفة اللطيفة ، والصافية الرائقة ولكن هذا الكتاب لا يخلو من مواضع تعرض فيها الرغبات والشهوات عرضا مكشوفا . وكذلك مواضع أخرى ، يتجلى فيها الذوق الذى يميل الى البر والتقوى ، ولكنها ألوان أخرى من البر والتقوى غير التى نعرفها ونمارسها !

ان الدين بالنسبة لسانت بف يمكن أن يشبه بعملية « التتبيل » التى تعطى شعره الطعم اللائق المناسب . وبهذه المناسبة نورد قول مسيو « دى سانت ـ كيران » فى معرض حديثه عن فرجيل أن « الدين يقدم للارواح المترفة رفاهية أكثر .. الرفاهية التى تجعلنا نفقده » .

وكان شاتوبريان يعرف الثمن الذى يضيفه تأنيب الضمير الى اللذة ... هذا الذى خلد ذكريات الحب العظيمة لعاشق « فليدا » .. وقد أبانت « جورج ساند » (١) نفس هذه العاطفة فى موقف الراهب ماجنوس بجانب ليليا .

وعملية الخلط أو المزج هذه لا توافق الا العصور ذات التدين الذى يخالطه الشك ، والنفوس التى لا تتمتع الا بثلاثة أرباع الحرية ! ولقد كان سانت بف من أبناء عصر من هذه العصور ، وله نفس من هذه النفوس . ولقد أعترف سانت بف بعد أن تقدمت به السن ، أى بعد أن « تعقب كل السحب ! » ، بصراحة ومن غير مواربة لمدام « هورتينس آلار دى ميريتان » ، أن هذه الروائح اللادينية مرجعها المباشر هو المرأة . قال : « لقد خضعت لبعض الخرافات المسيحية فى زمنى ، ولكنها سرعان ما تبخرت .

لقد كانت بالنسبة لى كالبجعة التى تسبح فى بحيرة « ليدا » طريقة للوصول الى الجميلات ثم غزل خيوط الحب اللينة . ان للشهاب زمنا ، وفيه يحدث كل شىء .

كم من مرة أغلق سانت بف حجرته على نفسه وانغمس فى قراءة « اعترافات سانت أوجستين » ! لقد كان يفعل ذلك ليسبح فى اجواء الخيال ، ويرسم لنفسه صورة غريبة .. صورة الحبيب الذى قاسى الأهوال من قبالة حبيبه ، وتردى فى هوة الهلاك ! تحت هذا التلوين التصوفى الحسى ـ ان صح هذا التعبير ـ اخرج كتاب Les consolations لينا ومؤثرا الى درجة كبيرة . اما العنصر الأول من هذاالتلوين فيختص بمدام « ف . هـ . » التى يصفها بقوله :

هى أكثر نضوجا من شجرة الكرم التى تنمو على مدخل الغار

والآن لابد أن تذكر أيها القارىء هذه المرأة السعيدة التى كان صدرها يعلو ويهبط وهى تتنهد عن قلب من نار ! وذلك الشاعر الذى يظن أن :

هذه السماء ستبقى رزقاء ، بعد أن نختفى نحن من هذا الوجود

والذى يبحث عن فكرة تعزيه وهو فى غمرة سعادته :

نولد ، ونعيش ، ونموت ، فى نفس المنزل

أما التلوين الحسى فقد سبق وأشرنا اليه وبينا أسبابه . وتقع التعزية الثالثة فى نهاية الكتاب . وهى خاصة بذكريات الأجداد

---

(١) أديبة فرنسية كبيرة ولدت عام ١٨٠٤ وماتت عام ١٨٧٦ .

والأســـلاف وتشبيع فيها ــ كبقية أجزاء الـكتاب ــ النغمة البسيطة الحزينة . وعلى الجملة ، فهذا الكتاب قيم عظيم الخطر من جميع نواحيه لأن المؤلف يخضعنا ونحن نطالعه لنفوذه القوى اللذيذ !

مما ســبق نستطيع أن نعلم أن ســانت بف قد أحب . وها هو يـكتب من باريس فى ١٨ ديســـمبر عام ١٨٣١ الى الأب « بــارب » ، صديق طفولته الذى يحترمه ويجله الى درجة كبيرة :

« لقــد قاسيت آلاما كثيرة في هـــذه الشهور الأخيرة وهى آلام يحاول أن يتحاشاها وهو ينظر الى باب الســعادة ــ وان الرغبــة التى كنت أتمناها أصبحت اليوم أكابدها . ان هذه الرغبة تمتد وتشــتد ولقد قذف هذا فى حياتى بالكثير من الضروريات ، وبالمرارة الممتزجة بعنصر اللين ، وبواجب التضحية الذى سيكون من نتائجها الطيبة . ولكنه فادح الثمن لطبيعتنا » ولقــد أضاف مسيو « فرانسوا موران » مؤلف هذا الكتاب القيم « شباب سانت بف » الذى قدمنا لك منه هذه النبذة السابقة قوله : « ولم تبق هذه الرغبة سرا فى حياة سانت بف فى هذا العصر ، ولكنه من ناحيته لم يعترف بهـــا » . وذلك لان الاعتراف بها كتابة ، ونشرها على الملأ يفقدها ثقة القراء فيصعب عليهم تصديقها . وبعد ذلك ، حينما أخذت عاطفته هذه تميل نحو الغروب والزوال ، كان يسره كثيرا أن يتذكر هذه الستة أشهر السماوية من حياته التى قضاها فى اتمام كتابه Les consolations ولكن هــذه الشهور لم تكن سماوية كما وصفها ، بل كانت فى الحقيقة أقرب الى الأرض منها الى السماء ! وقد ظهر ذلك بوضوح فى سيرة حياته فى تلك الحقبة ، بل وفى نفس كتابه .
وســانت بف يحدثنا عن غرامياتـه الأولى ... عن « بياتريس » ضاحية « بولونى سير مير » ، فيقول :

... انت أيتها الكاميليا

أيتها الشقراء الحنونة ذات الجبهة الصـــافية ، أيتها الفتـــاة الهادئة الساكنة .

كم من الحــدائق قد قطعتها وراء شره العيــون ؟

حيث تعبق زهــرة الـكاميليا وغيرها من الزهور !

هذا هو اعترافه بالحب ، وهو اعتراف طفولى ساذج .

لقد كان ســانت بف قبيح الوجه : فرأسه كبيرة حمراء ومعارف وجهه طفولية تبعث على السخرية . لقــد حرمته الطبيعة من المزواج الذى يفتح أمامه قلوب النساء . انه لم يهيأ لاخضاع من يحب ، او على أقل تقدير جذب قلبها اليه . ولهــذا كان يتعــذب ، ويقاسى الآلام المريرة القاســية . ومما زاد فى آلامه أنه كان كذلك ســوداوى المزاج متفجر الغرائز كما سبق وبينا . لقد كانت هيئة « بايرون »[1] الجميلة

---

(١) لورد بيرون اعظم شعراء القرن التاسع عشر فى انجلترا .

ووجه شاتوبريان الجذاب تؤهلهما للخوض في هذا الغمار بنجاح . أما هو فكان عليه أن يكتفي ويقنع بغراميات عابرة بسيطة خشنة ، ويرضى صاغرا عن انتصاراته الضئيلة الشاحبة فيها .

مضت عدة سنوات على نجاح كتاب سانت بف وهو نجاح هادىء سعيد . ثم ظهر الشاعر بهيئة جديدة ، فقد طبع في عام ١٨٣٧ كتابه « أفكار اغسطس » . وكان ذلك عقب عودته من جنيف وقد تقاسم قلبه الحب الأرضي والحب السماوي ، وظلا في صراع دائم حتى استنزف كل منهما قوى صـــاحبه ، ونضـب معينهما في قلب الشاعر . وكان الربيع قد ولى ومضى ، وماتت في نفسه أشياء كثيرة ، ولكنه كان لا يزال يتمتع بمقدرته العجيبة على الفهم . ولقد قال يصـف نفســه في هذه الفترة من حيــاته : « كان الذكاء يطل على هـذه المقبرة ، كأنه القمر الميت الشـــاحب !» وكذلك جف جدول تمنياته وثقته ، فخلا كتابه الجـــديد « أفكار أغسطس » من عنصر الحب ، وقد قال سانت بف وهو يمزح عن كتابه هذا .

« لقد أعطيت « جوزيف ديلورم » ، و « التعزيات » . ولم يبق لي الا آن أقدم ذيل الفأر ، وقد جعلته يتلوى على حسب طريقتي ! »

ذنب الفأر ، أو ذنب كلب البحر ، فالذنب على كل حال كان ملتويا ملتفا بطريقة تثير الدهشة والاعجاب .

وكان الشعر في هذا الكتاب بسيطا مسليا ، حتى لقد خيل الى ســانت بف أنه قد وجد اله الشعر . ولكن الجمهور القارىء ثار على هذا الكتاب . وقد قال سانت بف نفسه أن الجمهور قد أستقبل كتابه « استقبالا منفرا » .

وكانت شخصية أكبر مجموعة شعرية من مجموعات هذا الكتاب هي شخصية « مسيو جان » . ومسيو جان هذا هو ابن طبيعي لجان جاك روســو ، وقد أصبح من مدرسي الأطفال في القرية ، وبقي بسيطا خجولا في أخلاقه وأعتقاداته . ولقد حاول أن يكفر بالرحمة المتواضعة والفضــائل الهادئة عن النصر المشــين الذي أحرزه والده . لقد تخيل الشاعر هذه الحياة ، وقص تفاصيلها بدقة مدهشة وبأســلوب سهل بسيط . وكان تلوينه لهذه اللوحة باللون الرمادي مما يجعلها أليمة حزينة . فهو يشعر بنفس الشعور الذي ينتابه وهو يعبر قرية فقيرة تظللها ســـماء ممطرة عابسة . وهو يســير في طريق طويل قد كســاه « الوحل » في كل جزء من أجزائه . ولكن القارىء ثار وهام : « ما هذا الجو الموحش القاتم ؟ وما هذا الطريق الموحل المملوء بالحصى ؟ » فيجيب سانت بف على قولهم هذا :

« ان هذه الخشونة القاتمة قد زرعت لغرض آخر ، لغرض خاص فأشــعاري ستر تاح لها أذنك لأنها مطرية مشــجية ولكن على طريقتها الخاصة . وسوف لاتسمع شيئا من سجعي أو جناسي » .

أما جماعة الأكاديمية الفرنســية ، ونقــاد الصــحف ، والنساء الأديبات ، فقد أرتفع صــوتهم جميعا : « يا الهي !! ان مدير مدرستك هذا صلف ممل ! »

وكان مدير المدرسة ، أو مربى الأطفال هذا شخصية لا نبالغ ونقول أنها مثالية « رومانتيكية » ، بل شخصية محددة .. شخصية رجل عادى . لقد كان الشاعر يعرف جيدا ما يريده ، ولهذا هيأه لهذا الفرض بمهارة عظيمة . هو يريد أن يصل الى تلك الخصوصية والى هذا التحديد ، الذى عندهما تصبح بنات أفكارنا حقيقة لنا ويعرفها الجميع . ولقد حاول مسيو « دويلان » أن يخلق لنفسه مثل هذه الشخصية . ولقد أبتدعها فعلا وسماها « الملاك الفاتن » ولكن سانت بف وجد هذا النموذج « لامرتينى » خالص .

ولنرجع الى شخصية سانت بف . لقد وصل صاحبها الى قصده لأنه كان يجب عليه أن يخرج من بين السحب ، ويجول فى مكان ما ! ولقد كان الشعر يطفو تارة على وجه هذه الأمواج الفكرية ويغوص اخرى ولكن الحقيقة أن سانت بف وجد نوعا من الشعر مستساغ المذاق ، لا يغضب أحدا . لقد فتح سانت بف ميدانا جديدا فى مجموعة اشعاره الأخيرة . ولذلك أخذ يتساءل عما اذا كان « رويار كولار » ، و «بوالو» تمكنهما معا أن ينتجا شيئا من الشعر الحديث . لقد تحمل الأسلوب فى هذا الكتاب مالا يمكن أن يحتمله من المعانى الصعبة المعقدة . ولذلك تقعر الأسلوب وأصبح غريبا فى طابعه غرابة تدنيه فى بعض الأحايين من الفساد والنشاز . لقد سبق ولاحظنا فى « أشعار جوزيف ديلورم » بعض الشطط الجامح مثل قوله :

فوق منضدتى اللبن الرائق الصافى ، وفى سريرى عين سوداء حالكة !

ولكن هذا الشعر — رغم شططه الجامح . يمكن أن يعد من الأدب الكلاسيكى ، اذا قورن بالشعر الذى يطالعنا فى « أفكار أغسطس » مثل :

ولكن قامتها انتشرت وقفزت ، وأخذت تطارد بقر الوحش

واذا قلب القارىء عدة صفحات من هذا الكتاب ، وجد تعبيرات غريبة : يلاحظ فيها الحذف ، واستعمال التشابيه الغريبة ، وتفشى صيغة التفضيل التى لا تقدم ولا تؤخر .

وكان الشاعر قد أولع باستعمال الافعال الناقصة فنراه ينثرها هنا وهناك ، لأنه يظن أن المعنى فى هذه الحالة يكون منتشرا فى الكلام فيكسبه روعة شعرية جذابة . ويلاحظ القارىء كذلك ، لونا من الرطانة أو « اللغة الأعجمية » كما نسميها عندنا . وهذه اللغة يصعب على المرء فهمها الا اذا كان فطنا ذكيا . وذلك مثل قوله مثلا :

« فضلات الخبز المنتهية » . وغنى عن البيان أن ترجمة أمثال هذه (الاصطلاحات) يعد من الأمور العسيره كما أن الثوب العربى لا يعطيها معناها الذى قصد اليه سانت بف .

كل هذا جعل القارىء يسأم ويمل . لأنه لم يكن يريد أن يبحث

فى خلال هذا البحر الزاخر من الغرابة والمعانى المعقدة المغلقة ، عن الاشعار الساحرة الجذابة .

ولكن على الجملة فهذا الكتاب هو الآخر كتاب قيم اذا صرفنا النظر عما سبق وشرحنا من نقائصه وعيوبه ، والكنز ان لم يكن رائقا فهو كنز على كل حال !

وأخيرا نستطيع أن نقول أن الكتب الثلاثة التى اشرنا اليها وهى « أشعار جوزيف ديلورم » ، و « التعزيات » و (أفكار أغسطس) تشرح لنا النواحى المختلفة لطبيعة واحدة . فنحن قد رأينا سانت بف قد تمكن أن يخضع نفسه ، ويرغمها على قبول ثلاث عناصر متباينة . وهذه هى حالة البشر جميعهم . فنحن لا نبقى لحظة واحدة أى لا نكون « انفسنا » فى كل لحظة . ولكننا مع ذلك لا نتغير فنصبح « غيرنا » .. نحن نتحرك ونثور ونضطرب ولكننا لا نتغير .

وسانت بف يظهر لنا فى أحواله الثلاثة ــ التى تشرحها لنا كتبه الثلاثة ، كذلك الرجل المتفجر العواطف ، السوداوى المزاج ، والرجل الذكى الحاذق ، وأخيرا الرجل المتألم الشاكى . أما أحوال الرجل الأخرى فهى بنت المصادفة ، ووليدة الظروف . فلقد رأيناه فى «جوزيف ديلورم » تثور فى نفسه الرغبات الجامحه ، وتنعكس على صفحة حياته الالام التى أورثتها له أيام طفولته الأولى . وهذه الناحية الأخيرة ناحية الألم والتعاسة ، هى التى يحاول المرء أن يتخلص منها . فالمرء يعتقد طويلا أنه تعيس ، وأنه صاحب ألم عظيم . ولكنه بعد ذلك ، يعلم فى يوم ما ، أنه كان مخدوعا وانه حتى فى فترات الألم الشديد كان يعيش الحياة العادية .

وكتاب سانت بف الثانى Les consolation يعبر تماما عن هذه الفترة من الحياة . فقد أظهر الكتاب سانت بف فى حالة تقرب من الهدوء والرضى . وذلك لأن عواطفه كانت قد انصهرت وفصلت عن العناصر الغريبة الضارة . ولهذا السبب نرى أسلوبه قد عذب ، ولانت طريقة صياغته وتعبيره .

ولكن الرغبة ــ التى تستطيع بمفردها أن تطعم الأشياء بعنصر الجمال ــ اخذت تخبو شيئا فشيئا مع تقدم السن حتى خمدت فى نهاية الأمر . .

لا شىء اذن سيضحك ويبتسم بعد ذلك ، والوداع لتلك الأسرار الساحرة العظيمة التى تملأ لنا الطبيعة ، وتجعلنا نتسلى بالحياة فى عالم باسم ! هنا يتعب المرء ويجهد بعد السير الطويل . هو فى مرحلته هذه لا يعطى شيئا للحياة ، بل يتقاعد ، ويجد نفسه قد خدع فيفكر هو الآخر فى الخيانة والخداع !! وهنا يشعر المرء ببغضاء كريهة تتسلط عليه وتجعله يكره نفسه ، كما يكره غيره من الناس . ولكن الذكاء سرعان ما يقف على قدميه ويتسلط ويحكم على أطلال هذه العواطف والشهوات الخطرة . ولا يهم المرء حينئذ الا الفهم والشرح ، ولا يقيم وزنا للقول الا اذا كان يطفىء شهوة حب الاستطلاع .

فى هذه المرحلة من مراحل الحياة يقدم لنا سانت بف « أفكار اغسطنس » .

وهنا يلاحظ القارىء أننا بتتبعنا آثار هذا الشاعر قد تتبعنا فى نفس الوقت حياة (الرجل) .

والآن لا يجب أن نطرح جانبا ، أو ننبذ شيئا من هذا الشعر فلقد رسم لنا لوحة رائعة للنفس الانسانية المتشوقة ، التى تتربع على قمة الفطنة والذكاء ، والتى تتشابك فيها العناصر وتتعقد . هى نفس فريدة لم تنتج مثلها الحضارات القديمة !

مدام دى ستال

(١٧٦٦ – ١٨١٧)

عناصر البحث

لوحة حياتها .

تحليل شخصيتها .

مذهبها السياسى ، وعقيدتها الدينية .

أفكارها الأدبية

لوحة حياتها :

ولدت « جرمين نكر » سنة ١٧٦٦ · وقد ظهرت عليها ملامح الذكاء وامتازت بدقة الملاحظة ، وحسن التعبير عما يجول فى نفسها من آراء وأحلام · وهى لا تزال طفلة صغيرة تلهو وتمرح مع لداتها ، ولقد ساعدها نضوجها الفكرى المبكر ، وهى لا تكاد تناهز الحادية عشرة من عمرها ، على حضور أيام استقبال والدتها للصفوة من العلماء والأدباء والفنانين فى ثويها المشهور . وهكذا تكونت عناصر عقلها ، وتفتحت براعمه تحت قوة هذه الاشعاعات الشديدة ·· اشعاعات العلم والفن والادب التى كانت تتولد من بعض العقول الجبارة مثل : راينال ــ توماس ــ جريم ــ موريلى ــ سوارد ــ وبوفن ... الخ .

تزوجت » جرمين نكر » فى سنة ١٧٧٦ من البارون دى ستال سفير السويد · ولقد رحبت مدام دى ستال بالثورة الفرنسية فى أول أمرها ، واستقبلتها بسرور كبير ، وبنفس غنية بالامل ، جياشة بالامانى الباسمة المشرقة . وكونت لنفسها ثويا أو (صالونا) ، أصبح بعد قليل هو المكان المختار الذى يجتمع فيه عشاق النظم الانجليزية من أمثـــال : مونيه ـــ مالويه ــ كليرمون تونير ــ ومونتمورانسى . ولقد حدثت فى ســبتمبر ســنـــة ١٧٩٢ أن اضطرت مدام دى ستال الى الهـــرب بسبب الاحــوال السياسية المتغيرة المتقلبة فى داخل فرنسا · فغادرت باريس والتجأت الى « كوبت » بالقرب من جنيف . ولكنها عادت الى باريس سنة ١٧٩٥ ، فدب النشاط من جديد فى ثويها ، وأخذ يتردد عليه جهابذة العلوم والفنون والآداب : دونو ــ كابانيس ــ جارا ــ دوديريه ــ م·ج·شينيه ــ وبنجامان كونستان · وكان هذا الاخير لا يتخلف يوما عن الحضور ·

ولكن سرعان ما اشتبهت فيها حكومة الديركتوار ، فاضطرت الى العودة ثانية الى «كوبت» ، وبقيت فيها حتى سنة ١٧٩٧ . لقد حاولت مدام دى ستان أن تعيش فى سلام مع بونابرت ، ولذلك مرت مدة لم يحدث خلالها ما يعكر صفو هذا السلام · واستمرت الحالة على هذا النمط الهادىء حتى سنة ١٨٠٠ · ولكن حدث فى يناير من هذه السنة ان كتب بنجامان كونستان ــ فى صالونها ــ مقالا طويلا يفيض دفاعا عن الأهالى ، وينذرهم بفجر عهد الارهاب · وعندئذ كان لابد من حدوث شقاق عظيم بينها وبين أولى الامر ، ولا سيما ان أدبها نفسه فى هذه الفترة وأعنى بها سنة ١٨٠٠ قد طعم بعناصر تلميحية رمزية خبيثة ! ومن ناحية أخرى كان صالونها فى

١٨٠٢ يضم بين جنباته جماعة أخذت تشن حرب هجاء قوية على نابليون وأتباعه. وأفراد هذه الجماعة تتكون من : مدام ريكاميه ـ مدام دى بومون ـ بنجامان كونستان ـ س ٠ جوردان ـ ومورو ٠ ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل أخذت هذه الجماعة تحبك خيوط المؤامرات مع برنادوت ، ومورو وتتمنى باخلاص سقوط هذا النظام الجديد ٠

ولقد انتهى الأمر بنابليون الى الثورة . وتسلمت مدام دى ستال فى اكتوبر سنة ١٨٠٣ الامر بالابتعاد عن باريس مسافة لا تقل عن اربعين فرسخا فلم تجد بدا من مغادرة فرنسا ، فتركتها وسافرت لزيارة ألمانيا ثم عادت بعد مدة وجيزة الى « كوبت » .. وكان رجوعها متأخرا فلم تحضر موت « نكر » ٠ ثم سافرت الى ايطاليا ، وبقيت هناك حتى سنة ١٨٠٥ وعادت بعدها الى كوبت حيث كتبت كتابها العظيم « كورين » الذى صادف بعد نشره بقليل أكبر قسط من النجاح . وهناك فى « كوبت » كان يزورها بعض الأصدقاء القدماء الذين تحرروا من سلطة نابليون . ومنهم: بارانت ـ الزباردى سابران ـ مونتى ـ سيموندى ـ وجيوبز الأصغر ٠ عادت مدام دى ستال بعد ذلك الى المانيا سنة ١٨٠٧ ٠ وبعد رحلتها هذه نشرت كتابها القيم عن « المانيا » الذى اعدمت كل طبعاته الفرنسية بيد البوليس الامبراطورى . كما أنها هى الأخرى تسلمت أمرا بالخروج من أرض فرنسا ، وكان ذلك سنه ١٨١٠ ٠ ولم تكتف الحكومة الفرنسية بذلك بل أخذت تبث حولها العيون والارصاد وهى فى كوبت . كما انها منعت من رؤية أصدقائها الذين شرد معظمهم بالنفى مثل : ريكاميه وماتبودى مونتمورينسى ٠ ولقد استطاعت مدام دى ستال أن تهرب فى سنة ١٨١٢ وتلتجىء الى بترسبورج ومنها الى السويد . ثم سافرت أخيرا الى انجلترا . وفى سنة ١٨١٧ ، وكانت حينئذ قد أوشكت على الانتهاء من كتابها « تأملات فى الثورة الفرنسية » ، اسدل الستار على حياة مدام دى ستال ٠٠ تلك المرأة التى صمدت لحاكم بأمره !

***

كان الظن السائد فى عالم الادب ، ان مدام دى ستال وشاتوبريان لا يربطهما أى رباط فكرى أو روحى ٠ ولكن الحقيقة هى ـ رغم تعارض المزاج والطباع والمبادىء فيهما ـ أنهما قد اتحدا فى دفع الادب نحو هدف واحد

لقد خلقت مدام دى ستال فى المذهب الابتداعى أو (الرومانتزم) الكثير من الافكار ووسائل النقد والنظريات ٠ وكذلك تلقفت جماعة الرومانتزم من شاتوبريان ما يمكن أن نسميه « بالنزعة التصورية » أو الخيالية الوهمية البالغة حد الكمال ٠ هذه النزعة حددت معالمها مدام دى ستال وحققها شاتوبريان فى مؤلفاته ٠

تحليل شخصية مدام دى ستال :

عاشت مدام دى ستال فى القرن الثامن عشر ، بل نستطيع أن نقول انها هى القرن الثامن عشر الحى .. القرن الثامن عشر بجملته . وذلك لان كل التيارات المعارضة تجد عندها المصب اللائق ، فتتدفق اليه من غير وهن أو ضعف .

مدام دى ستال هى ابنة جان جاك روسو فى حياته العاطفية القوية البالغة الحده ، والجامحة أكبر جموح . لقد وهبها الله مخيلة خصبة ولكنها مضطربة وثائرة فى خيالها ، وقلبا متأججا دائم الاشتعال تصهره فى كل يوم نيران الالم والافتتان وشدة الرغبة .

هى تتمتع بخصلة حميدة غريبة هى الاثرة العامة . فهى دائما فى عطش دائم الى السعادة لنفسها ولغيرها . فهى تكن للناس جميعهم الخير والعطف والعدل . كما انها تبغض من كل قلبها الاستبداد والتعسف فى الحقد . وعندها أن التعبير القوى للشخصية هو الخروج على الاوامر التعسفية بكافة ألوانها وأنواعها . وهى تريدأن تبسط شخصيتها فىأكبر دائرة ممكنة .. تريد ان تتمتع بنفسها ، وفى نفس الآن تستغلها بالطريقة التى تحبها وترضاها . ولكن المثل الاعلى للتمتع أو الاستمتاع عندها هو أن ترى نفسها الكاملة معكوسة على مرآة نفس أخرى مشغوفة بحبها واحترامها .. فمدام دى ستال تريد ان تمتد بكل عناصر شخصيتها فى نفس العاشق . وبهذه الطريقة وحدها تريد أن تحب . وهى اذا وصلت الى هذه المرتبة فقد وصلت الى السعادة . ولكنها كانت تواجه الكثير من العقبات والصعوبات فى طريق تحقيق هذا اللون من السعادة . فكل تجاربها فى هذا الصدد لم تتمخض عن الاستحسان العاطفى . ولقد انتهى هذا الشذوذ فى أحلامها وحقائقها ، أو فى عالم الخيال وعالم الروح الى نتيجة واحدة : هى تقوية وترتيب عناصر المذهب الرومانتيكى المتغلغل فى ثنايا عقلها .

كان «لكلاريس هارلو» و «فرتر» أكبر الاثر فى تغيير مجرى حياتها وهى شابة فى ربيع عمرها . أما «ولتر سكوت» فقد عطر أخريات أيامها بسحره الفنى .. فشبت وهى تعتقد باخلاص واصرار أن للقصة وجوداً حقيقيا فى الحياة .. وان الحقيقة هى القصة !

ولقد تهيأت فرصة فريدة لمدام دى ستال أشبعت تعطشها الى السعادة ، ذلك التعطش الذى سبق واشرنا اليه . فقد استراحت أخيرا الى غرام عجيب ، وزواج غريب ونالت بذلك السعادة التى كانت تصبو اليها وتحلم بها .

لمدام دى ستال روح روسو القوية الحادة ، أما من ناحية العقل

والتفكير فهى ابنة فولتير . . ابنة القرن الثامن عشر الرزين العاقل فكانت ديانة هذا العصر هى ديانتها ، واعتقاداته هى اعتقاداتها • ولذلك نراها تؤمن بقابلية التقدم ، وبالكمال الضرورى المحقق للانسانية • فهى لم يخامرها الشك أبدا فى الحقائق المطلقة كوالدها الروحى روسو • وبذلك أصبحت حياتها كلها وقفا على تحقيق وتطبيق حقائقها المغروسة فى نفسها •• مهما كانت معتقداتها هذه جامدة أو مطاطة غريبة أو مألوفة فالواجب يقضى بتصديقها والايمان بها لانها ـ كما تراها هى ـ حقيقة لاريب فيها• وهكذا أصبحت نزعتها الرومانتيكية تهدف نحو الروحانية الغامضة الساحرة •

ومدام دى ستال لا تستطيع أن تعيش كما تحب الا فى باريس حيث أسست صالونها الادبى الراقى . أما محادثاتها فمسكره ، ينتشى بها السامع كأنها كأس الخمر المعتق القديم • وأفكارها تنبعث من عقلها فى قوة شديدة تذهل وتصعق ! وكان اعجابها لا ينصب الا على الاشخاص العالميين من أمثال : «جوبير ، وتاليران ، ونوريون ، وبنجامان كونستان، وكل من تتوسم فيه القدرة على صياغة الجواب الصحيح لاسئلتها • ومدام دى ستال ان لم تكن قد فهمت جيدا نفسية نابليون ، فان هذا يرجع الى نشأته المتواضعة ، ولان الفرصة لم تتسع لها لكى تجاذبه أطراف الحديث •

ولم تخلق مدام دى ستال للعزلة أو الوحدة فهى تخافها وتخشاها •• وهى لا تجيد التفكير الا اذا وجدت بين الناس ، امام سامع أو مع متحدث لبق مكالم • وتظهر هذه الخاصية فى كتبها بوضوح عجيب : فمؤلفاتها لا تخرج عن كونها محادثه مستديمة مستمرة •

محادثة روح فسيحة الآفاق ، نشيطة ثائرة تلفظ الافكار وتخرج الآراء بسهولة مدهشة . وهكذا يتلخص فى أدب مدام دى ستال ، كل عناصر الادب فى القرن الثامن عشر • بل يمكن القول انها أضافت اليه شيئا جديدا • وتفسير ذلك ان مدام دى ستال دولية ـ ان صح هذا التعبير ـ لا تتقيد بالحدود والتخوم ، أو بالممالك والمقاطعات • وهى تعتبر أهل فرنسا من الوجهة النظرية لاشىء غير أفكار ورغبات • أما من الوجهة الواقعية فكانت تؤمن بعجزهم عن الخروج « من أنفسهم » . وذلك لان ادعاء حبهم لمختلف الاوطان والتنقل هو فى الواقع ستار كثيف يخفى وراءه الغرض الجوهرى وهو صب الانسانية كلها فى قالبهم الخاص • ومن أجل هذا رفضت مدام دى ستال ان تكون فرنسية بهذا المعنى وعلى هذا الوجه • والظاهر أن لاورمتها واصلها بعض التأثير فى موقفها هذا • فأهل سويسرا مثلا بحكم موقعهم الجغرافى الذى يجعلهم على اتصال بكل من فرنسا وايطاليا وألمانيا ، نجد عندهم صلاحية خاصة لفهم الاوضاع النفسية الخاصة لهذه الشعوب كلها• فذكاؤهم والحالة هذه من نوع الذكاء الجامع • هذا هو الطابع المعروف لكل أهل سويسرا الذين ألفوا فى الفرنسية • وهنا يجب أن نبعد جان جاك روسو عن هذه الحظيرة لان الروح أو الطبيعة الفرنسية قد تغلغلت فيه الى الاعماق • ولكن كل من مدام دى ستال ، ومارك مونيه ، وشير بوليه ، وادوارد رود ، تراهم جميعا يتصفون بما

يمكن أن نسميه «النفسية الاوروبية» كما تقول مدام دى ستال نفسها .

وقد ساعدت ظروف الحياة ، والاحوال السياسية الداخلية فى فرنسا، مدام دى ستال على التنقل وعدم الاستقرار فانها حينما غادرت باريس مرغمة عاشت فى «كوبت» حيث شيدت صالونا أدبيا قيل عنه ان له ثلاثة أبواب تطل على فرنسا وايطاليا والمانيا . وفى كوبت استطاعت أن تتنسم بسهولة عبير ايطاليا والمانيا ، وتشعر بجاذبيتهما عن قرب . ثم تركت كوبت وسافرت الى روسيا فالسويد وأخيرا استقر بها المقام فى انجلترا . فمدام دى ستال اذن قد طافت بارجاء أوروبا ، واستطاعت ان تفهم تياراتها السياسية والادبية حق الفهم . وسوف نرى بعد قليل أهمية تنقلها هذا فى تقدم وتوحيد المذاهب الادبية . ولنكتفى هنا بقولنا أن مدام دى ستال قد خلقت ادبا جامعا ، مطبوعا بالطابع الدولى . أما قبل مدام دى ستال فلم يعالج الادب الفرنسى موضوعات العالم الاوروبى الا بطريقة تخطيطية عقيمة تشبه ما نسميه « بالرسم الكاريكاتورى » .. فمدام دى ستال قد استطاعت بقوة تفكيرها أن تفرق وتميز بين شخصيات كل شعب ونفسيته .. فهى تعرف الروح الالمانية ، والحياة الألمانية وتميزها عن حياة فينا ، وتفرق بين حياة فينا وبين حياة برلين . بل أكثر من ذلك هى تفهم روح أهل شمال ألمانيا وتميزها عن روح أهل الجنوب . أما عن روسيا فالامر يختلف . لانها لم تستقر فيها ، وتخالط أهلها بل مرت وهى فى جوف عربة السفر . ولكنها مع ذلك استطاعت أن تقف على بعض معالم المجتمع الروسى ، وتفهم بعض الفروق الجوهرية التى تبعده عن عصبة الشعوب الاخرى . وفوق ذلك نجدها قد شعرت بتعقد نفسية الطبقات الحاكمة هناك ، وبمظاهر بذخها المغطى باستار مدنية عبقه الاريج ..

ومن هنا كانت قصتها « كورين » من القصص الدولية العالمية . بمعنى ان شخصياتها لم تتأقلم بأقليم خاص ... فالانجليزى والفرنسى والايطالى قد صبوا جميعا فى قوالب جامدة بعض الشىء ، ولكن هذه القوالب قد هذبت وأكملت فيما بعد بدراسات علمية وفنية وافرة .

وأخيرا يجب أن نشير الى العنصر الاخير الهام من عناصر عبقرية مدام دى ستال . فهى لم توهب « طبيعه فنية » على الاطلاق ، ولكنها – ولا شك فى ذلك – لها مخيلة غنية عاطفيه . ولكن هذه المخيلة ليست من ذلك النوع الذى يفهم فلسفة الفن . ومن هنا كان عدم قدرتها على اتخاذ خلجات قلبها أو تموجات عواطفها كمادة حية للفن ، وكذلك فشلها فى ابراز شعورها الخاص فى قالب مؤثر صريح . وبمعنى آخر عدم قدرتها على ترجمة مايجول على مسرح نفسها ترجمة صحيحه سليمة . وكان كل عملها – فى هذا الصدد – ان تترك هذه الخلجات والتموجات تمر من غير أن تتصدى لها بالتحليل والتشريح . وكان يجب عليها – اذا أرادت أن تترجم هذه العواطف – ان تصوغها فى قوالب فكرية خاصة بها وحدها ، ولكنها لم تفعل لانها كانت تعتقد ان وظيفة القلب – كغيره من أعضاء الحواس – هى المعرفه !

لم تكن مدام دى ستال تتاثر بالطبيعة كثيرا فهى لا تراها الا اذا (أرادت) أن تنظر • ولذلك لم ينضج محصولها الضئيل من مشاهدات الطبيعة الا فى تنورالمعرفة والدراية العلمية• أما جانب الطبيعة الحى الذى يحتاج الى ريشه فنان عبقرى ليرسم لوحتها بظلالها وألوانها الغريبه ، فلم تستطع مدام دى ستال الوصول اليه أو الاقتراب منه • وهنا تقترب قليلا من شاتوبريان • فمدام دى ستال قد فهمت الريف الساذج وصاغت فهمها هذا بعبارات صريحة • أما شاتوبريان فانه حينما يقدم لنا لوحه الريف هذه فانما يقدم نفس شعوره وتأثره الشديد • ولا غرابة فى موقف مدام دى ستال هذا من الطبيعة • فهى التى تركت المناظر الساحرة التى تحف بخليج نابولى و (فيزيف) ، لتجاذب أحد الاصدقاء أطـراف الحديث فى غرفتها !! ان الفن الخالص لا يلهمها شيئا • ويكفى مقارنة أوصافها التى جاءت فى كتابها كورين بالاوصاف التى شاعت فى كتاب شاتوبريان الخالد « الشهداء » • للتأكد من ذلك • ففى الكتاب الاخير يلاحظ القارىء لوحات طبيعية فنيه رسمتها يد فنان متمكن من فنه • أما فى « كورين » فلا يجد غير مذكرات سائح قد تملكته شهوة الاستطـــلاع • خلت مدام دى ستال من الشعور الفنى • فهى لاتتأثر الا بالذكريات التاريخيـــة ، وبالافكار العابرة التى تولدها المصادفات • وهى فى « كورين » نجـدها أحيانا تتمتع بصفات المرشد أو الدليل الجامد العاطفة ، واحيانا أخـرى نراها تتقمص روح الشاعر الحالم • زارت مدام دى ستال ايطاليا ، ولكنها لم تستفد كثيرا من هذه الزيارة • فلقد هرب الادب الايطالى أمام عقلهـــا وتفكيرها • أما الفن من نحت وتصوير فقد تقبلته ببرود ، وحكمت عليه حكما قاسيا • ويرجع ذلك الى قصر مدة زيارتها لايطاليا •

أما فى الادب ، فلها ذوقها الخاص الذى يقنع ـ من الوجهة السلبية ـ بجمال القوالب الادبية وجودة التعبير وبلاغته• أما من الوجهةالايجابية المباشرة فهى تكتفى بالعاطفة الغنية الخصبة ، وبالتعبيرات الشـــخصية أو الذاتية •

لم تفهم مدام دى ستال شيئا من روائع الادب الاغريقى كما لم تفهم الادب الفرنسى فى القرن السابع عشر • واكتفت بأدب الشمال الموغل فيما وراء الطبيعه ، الموغل فى الشاعريه واخيرا الموغل فى الذاتية الشخصية من ناحية المعنى ، والغرابه الشاذة من ناحية الوضع والاسلوب • ولهـذا السبب افتقر معظم انتاجها الى « فلسفة الجمال » •

ومدام دى ستال كذلك لم توهب قدرة الخلق والابتداع • ونحن نلاحظ ذلك بوضوح فى كتابيها « دلفين » و « كورين » • فالقارىء اذا خرج من نطاق محدد فى هذا الانتاج •• اذا خرج عن نطاق ترجمة مدام دى ستال عن نفسها أو معرفتها الواقعيه فانه لن يجد شيئا له قيمته بل سيجد أفكارا جوفاء فارغة •

وهاتان القصتان لاتساويان شيئا اذا لم يبحث القارىء فيهما عن احساسات وأفكار مدام دى ستال نفسها • اما اذا اعتبرناهما ـ من ناحية

جودتهما البلاغيه ـ من التحف الادبية ، فيجب أن يعدهما من « أرانيك الرسم » كذلك فأبطال مدام دى ستال أمثال : (ليونس) و (دلفين) و « اسوالد » و « كورين » لا يـــمكن أن يوجدوا فى حياتنا الواقعيه الارضيه ، كما انهم لا يصلحون للعيش بين ظهرانينا لانهم من الشخصيات الغامضه المبهمه . ولكن اذا ستطاع القارىء اللبق أن يرفع عن وجودهم استار هذا الغموض والابهام ، الفي نفسه أمام مدام دى ستال وجها لوجه . ولا بد أن يجد القارىء اذا لم يطالبها بأكثر من الحديث معها ، التسلية والسرور وخاصة فى « كورين »

وقـــد كان من نتيجه عجـــزها عن الابتداع والخلق ان انكبت عـــلى الملاحظة . ولهذا لا يجب أن يطالبها القارىء بالبهرجة الفنية أو النظم أو الوصف الرائع فهذا كله لن يجده عندها . بل سيجد الكلام الرائق الصافى التى تغذيه الاخبار الفنيه والملاحظات الصائبة . وبالاختصار نستطيع أن تقول ان ماتقدمه لنا مدام دى ستال هو : الحديث الراقى .

مذهبها السياسى ، وعقيدتها الدينية :

لا تتمتع مدام دى ستال بعقليه نسائيه ، بل عقليتها أقرب ما تكون من عقليات الرجال . ولا تظهر فيها (المرأة) آلا عند تعبيرها عن احساساتها وتحت ضغط عواطفها التى دربت على ادراك أقل الوجدانات العاطفية .

ومدام دى ستال لا تؤمن بمذهب سياسى خـــاص فتقيد به نفسها وعقلها . بل نراها تعشق الحريه السياسية . وموقفها هذا من السياسة يمكن تفسيره وتحليله : فقد كان لحاجات ورغبات قلبها وعقلها أكبر الأثر فى جعل سيرها غير منظم ولا متناسب .

فمثلا احترامها الذى يمازجه الحنان لابيها ، كون عندها وجهة نظر خاصه للرجاله والاشياء . فهى تعتقد باخلاص ان « نيكر » هو بطل الثورة الفرنسيه .. هو المركز الذى شعت منه خيوط الثورة ، وهو المصب الذى سوف ترجع اليه كل النتائج . وهي اذا اضطرت أن تشرح الدور الـــذى لعبه وتبين موقفه ، اندفعت اندفاعا قويا شـــديدا الى الخوض فى تاريخ أوروبا كلها من عهد لويس السادس عشر الى عصر نابليون ! وهى تعتبر مادة هذه المواضيع كلها ضروريه لتشكيل تاريخ نكر . وكانت تجد مـــن رواد ثويها وأصدقاء أدبها كل التأييد على رأيها هذا .

ولقد افتتحت مدام دى ستال حياتها السياسية بتقدير واحترام الملكية الانجليزية . ثم تمكن بنجامان كونستان ان يحول اعجابها وتقديرها الى جمهورية الولايات المتحدة . ولقد حاولت من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٠٠ ـ وكانت فرنسا خلال هذه المدة تخضع لحـــكومات مختلفـــة هى الملكية الدستورية ، وحكومة الديركتوار ، وحكومة القنصلية ـ تحقيق حلمهـــا وهو أن تجعل من صالونها مركزا للحركة الحكومية . ولكن فطنتها المرنة كان يصيبها الشلل من غمرة عواطفها وحدة طموحها . فمدام دىستال التى

فهمت جيدا وبسرعه فائقة كل خصائص الشعوب ، لم تستطع أن تفهم فرنسا الثائرة • ومن هنا جاء غرورها وعدم كفايتها فى كتاباتهـا عن « تأملات فى الثورة » • ولكن هذا لا يمنع من وجود الكثير من الاحكام العميقة والآراء المفيدة فى هذا الكتاب الطريف •

لقد جمعت الكثير من المعلومات الطريفه وفهمتها وحللتها أحسن تحليل ولكنها أسندت أدوارا كثيرة صعبة الى شخصيات خاصة ، وقدرت نتائج بعيدة كمقدمة لاعمالهم حسنه كانت أم سيئة • ولكن ما هو الاصل فى هذه الثورة ؟ ومن أعدها ومهد لها ؟ من حول مجراها ، ومن حدد أغراضها ؟ هذا مالاتجيب عنه مدام دى ستال لانها لاتعرفه • وعوضا عن ذلك تعطى للقـارىء بعض الايضـاحات القصيرة المبتورة • هى لا ترى الا القوانين الاساسية : فكل شىء كان يسير سيرا حسنا اذا كان للشعب الفرنسى القانون الانجليزى ، ثم القانون الامريكى ، ثم من جديد وللمرة الثانية القانون الانجليزى • ولكن هذا لم يتم ، ويرجع الخطأ كله الى حفنة من الرجال الجاهلين العجولين سنه ١٧٩٠ ، وأصحاب الدسائس الطامحين سنه ١٧٩٥ ، ١٧٩٩ ، والى الرجال الانانيين الحاقدين فى سنتى ١٨١٤ ، ١٨١٥ • وكانت مدام دى ستال على اعتقاد جازم ان كل شىء كان يسير فى طريقه الطبيعى السهل لو « طبق القانون تطبيقا كليا » •

يمكن القول ان مدام دى ستال هى الام لمذهب الاحرار النيابى والدينى فهى التى عدلت نظرية « مونتسـكيو » بطريقة غريبـة ، تلك النظرية القائلة : « بانفصال السلطة التشريعيه ، واستقلال السلطة التنفيذية وقبل كل شىء مراعاة شروط الملكية : هذه هى المبادىء البسيطة التى تـكون الهيكل لكل قانون معقول » والمبدأ الاول والثالث عـلى جانب عظيم من الاهمية فبواسطه المبدأ الاول يتحقق وجود السلطتين ، وتقرير قواعدهما وبواسطة المبدأ الثالث تتكون فى الاحكام النيابية ما يمكن أن نسميه : «بالروح العبوس الغاضبة» • وبواسطة هذه الروح الجديدة تحول الطبقة الوسطى مجرى الثورة لصالحها ومنفعتها ، ويتبدل امتياز هذا المبدأ الى امتلاك الثورة ذاتها • وهذا يسبب القلق والخوف من الديمقراطية ، التى أولى قواعدها مبنية على الانانيه • وحسب رأى مدام دى ستال هذا تعتبر « وظيفه المواطن تتناسب فقط مع ملكيته » وعلى هذه الفكرة يستند النظام الاجتماعى كله • وهى اذا كانت محقة فى رأيها هذا فان مشورة الجميع تهدم الحكم البرلمانى ، وتضع الملكية فى أعظم الخطر • وهذا الرأى مـن ناحيه أخرى يبرر هجمات جماعه الاصـلاح ضـد نظـام الطبقة الوسطى (البورجوازية) النيابى • وقد نبعت من تلك الفكرة تلك السهولة الغريبة التى استطاعت بها مدام دى ستال أن تنتقل من الملكية الى الجمهوريه فهى قد خلقت وقايه اجتماعيه تتماثل مـع حقـوق الملكية • • ان العمـل الاول الرئيسى للحكومة ، وكذلك للملك أو رئيس الجمهورية هو السـلطة التنفيذية • ولذلك يجب عليه أن يحمى الملاك من تلك الكتل من « الرجال الذين يبحثون عن فريسة ! » ، وان يعتبر كل فوائدهم المادية ، وارباحهم المالية التى تعود عليهم من هذا المصدر من الجرائم التى يعاقب عليهـا القانون •

ولا يجب أن ننكر ان مدام دى ستال كانت ملهمة فى تعشقها مذهب الإحرار ، بباعث من الحب المتأجج للانسانية وبرغبة حميدة لحب الحرية والعدل والمساواة ، وبطبيعة فسيحة الرقعة تنقص في أغلب الاحيان الاحرار وأصحاب المذاهب ، الذين لا يعلو مستوى الالهام الخالص عندهم عن أمور الدنيا وشوائبها كثيرا .

ولكننا نجهل السبب فى تحجر صفاء عقلها وروحها ، وهى تلك المرأة التى عرفت شيئا عن روسيا سنه ١٨١٢ فأجبت أهلها جميعا ... هذه المراة نفسها هى التى لم تقم وزنا فى فرنسا الا لطبيعتها الراقية . وأخذت تنادى بوجوب تمتع طبقه خاصة بنتائج الثورة وهى الطبقة الراقية التى ينضم تحت لواءها الرجال ذوو النشأة الرفيعة ؛ أو على حد تعبيرها : « الرجال السادة الذين يمكن أن يستقبلهم المرء فى (ثويه) » وبعبارة أخرى فهى تعشق ارستقراطيه الاشراف !

أما من الناحية الدينية فقد بدأت مدام دى ستال بمذهب فولتير : «فولتير بانيزم» وهو عدم التفريق بين الاديان . وهى لم تضرب مطلقا على نغمة روسو الدينية . وذلك لانها لم تفهم روسو الا أخيرا وعلى يد الالمان . !

ولقد تحولت مدام دى ستال قبل موتها بعشر سنوات الى مسيحية ورعة ، ولكنها مسيحية لاتتقيد بالكنائس ولا بالاعترافات . ولعل أبلغ وصف يشرح لنا موقف مدام دى ستال من الدين هو ذلك الذى أثر عن المدوق «بروجلى» : حالة توسع في الدين تمازجها التقوى ، ومعنى هذا انها كانت تعتنق المذهب البروتستانتى الحر المستقل الذى لا يتعمق فى اللاهوتية أو يقرب من التصوف . وهذه الديانة تجمع فى نفس الوقت بين العقل والقلب ، بين التفكير والتعقل والعاطفة والحنان ، فهى ديانة عقليه قلبيه !

وكانت روحها تتأثر أشد التأثر باعتقادها الدينى ؛ أما موقفها من الاعتقاد فهو موقف المثاليه الرومانتيكية الجرىء . ولذلك نراها تظهر حماستها وافكارها الدينية بصرامة ومن غير التواء . فهى تعتقد أن وجود الله ضرورى لها، لكى يكلل مجهودها نحو السعادة بالنجاح وهى تؤمن بأن الله فى لانهائيته هو نفس هذا الحب اللا محدود الذى بحثت عنه خلال تجارب عديدة مريرة . ولقد لاحظت بعد ذلك ان فلسفتها ناقصة : فلن يضع الحياة فى هذا الاطار الضيق من الاحساسات النبيلة ، ليس بالقاعدة الكافيه للحياة . وان اللذة ، أو حتى لذة الرحمة نفسها ليست هى الفضيلة أو صورة خشنة منها . وكان الفيلسوف الكبير «كانت» هو الذى قدم اليها أو هداها الى محنة الواجب وصعوبة انجازه . ولكن مدام دى ستال — وهى المرأة قبل كل شىء — لا يمكنها أن تقبل الأمر المحتم بحالته الجبرية الآمرة ، يجب أن تحققه . وأخيرا فالله عندها هو ذلك النور الذى يضىء الكون .. ذلك النور الذى جعله يفهم ويعقل . لقد أعطى الله لعقلها اللا نهائيه العلمية ، وملأ قلبها بلا نهائية الحب .

***

الافكار الادبية لمدام دى ستال :

ان الدور الذى لعبته مدام دى ستال فى الادب الفرنسى ، يعتبره نقاد هذا الادب من الادوار البالغة الاهمية ، الذى يجب على حـــد تعبيرهم أن « يفهم ويفهم »

كانت مدام دى ستال توجه تياراتها الادبية الى ذكاء معاصريها ،وترغمهم على تعود ذلك اللون الجديد من التفكير • لقد قدمت الى أهـــل عصرها الكثير من الافكار والآراء التى وسع رقعتها فيما بعد ذلك الذكاء المعاصر • ولقد استطاعت بوسائلها المختلفه ان توجه الكثير من معاصريها ، وتجعلهم يستسيغون الميول الحديثة التى كانت قبل ذلك تعذب النفس وتسبب الآلام المختلفة ، والتى كان الذوق الادبى التقليدى يرفض لاجلهـــا السياحة فى الاسفار الادبية ! وهكذا استطاعت مدام دى ستال أن تضع مبادىء ذوق أدبى جديد يوافق تماما الحالة الحسية الجديدة للمتأدبين •

وكان كتابها القيم الذى يبحث فى الادب والاوضاع الاجتماعية ونعنى به كتاب : De La Litterature Consideree Dans Ses Rapports avec les Institutions Sociales.

الذى صدر سنة ١٨٠٠ ، من الكتب الغريبة المحيرة لانه أشد وضوحا فى تفاصيله منه فى جملته • هذا الكتاب ساذج فى بعض أبحاثه ، تصـــل سذاجته هذه فى بعض الاحايين الى درجة طفولية خالصة • ولكن الكتاب بوجه عام من الكتب الفريدة فى نوعها ، وهو ان دل على شىء فانما يدل على ذكاء المؤلفة وفطنتها • لقد أخذت مدام دى ستال على عاتقها فى هذا الكتاب — أو على الاصح فى هذه الرساله — ان تثبت أو على الاقل تؤكد أن الحريه والفضيله والمجد من الاضواء التى لا يمكن أن توجد منعزلة عن بعضها • ولقد حكمت على ضوء تجاربها المكتسبة بأن الفترات التى ازدهر فيهـــا الادب ونمى كانت من الفترات التى تتمتع بالحرية السياسية • ولقد ادعت مدام دى ستال أيضا أنه : « اذا تصفح المرء الثورات العالمية ؟ وتتـــابع العصور ثبتت لديه حقيقة القانون القائل : « بتقدم العنصر البشرى » • وهى « لا تظن أن هذه الطبيعة الاخلاقية قد هجرت فى يوم ما : لا فى عصور الانسان المضيئة ، ولا فى عصوره المظلمة » وكذلك تعتقد أن تقدم العقل البشرى لم يقف تياره أبدا •• ذلك التيـــار الذى يندفع الى الامام دائما • ومعظم هذه الآراء قد استلهمتها مدام دى ستال من بحث ليبيرول ولكنها توسعت فيها وتصرفت • وكان من نتيجة أبحاثها هذه ان حكمت مدام دى ستال على العصر الاغريقى حكما قاسيا• فقد قالت انه عصر ضعف مظلم • قالت ذلك عن عصر لاتعرفه بل تجهله كما تجهل العصر الرومانى• وكان من الطبيعى اذن والحالة هذه ان تعتنق الفكرة القائلة بتفوق عصر لويس الرابع عشر على عصر « أوجيست » • وهذه الفكرة الاخيرة قد نادى بها « بوالو » نفسه •

ولكن سرعان ما تقدمت مدام دى ستال خطوة جديدة حاسمة • فلقد قالت ان الآداب الحديثه هى آداب مسيحية ، وان الادب الفرنسى يوضع

فى مرتبة دنيا اذا هو أكد قواعد واعتبارات الادب الوثنى القديم • وقالت كذلك ان هناك من الآداب الاجنبية ما يفوق ويمتاز عن الادب الفرنسى ، لانها راعت الجمال الادبى الحقيقى ، ولانها كانت حريصة فى وطنيتها ، وفى عنصرها الدينى المسيحى وهكذا نصل الىمبدأ جديد ، وهو مبدأ واسع عميق حاولت مدام دى ستال أن تثبته وتبرهنه فى مقالتها أو رسالتها السابقه ، ويمتاز هذا المبدأ بأنه يشمل كل ألوان التقدم ـ التى جاءت متأخرة في فن النقد • تقول مدام دى ستال :

« لقد نويت أن أختبر وأعرف مقدار نفوذ الدين والاخلاق والقوانين على الادب •• يخيل الى أن المرء لم يحلل التحليل الوافى الاسباب الاخلاقية والسياسية التى تنوع العقليه الادبيه •• ونحن بملاحظتنا الاختلاف الشخصى ، ذلك الاختلاف المميز الواضح بين الكتاب الايطاليين والانجليز والالمان والفرنسيين أعتقد بعد ذلك أن القوانين السياسية ، والقواعد الدينية ، تلعب الدور الكبير الهام فى هذا التنوع الدائم •

ومدام دى ستال ببحثها فى هذه الاختلافات وصلت الى نتيجة هامة هى تقسيمها للادب الى قسمين : أدب الجنوب ، وأدب الشمال • «هومير» من ناحيه ، و « آوسيان » من الناحية الاخرى • من الناحية الاولى أدب الاغريق ، واللاتين وأهل ايطاليا وأسبانيا ، وأدب القرن السابع عشر الفرنسى • ومن الناحية الثانية الادب الانجليزى والالمانى والاسكندناوى •

ومدام دى ستال تحب فى آدب الشمال صبغته الخيالية وذلك التهور فى الحزن الذى وصفته بقولها : « الشعور الحزين بالمستقبل الغامض » وهى تعجب كذلك بانصباب مسائل ماوراء الطبيعة الفلسفية على الارواح المتألمة الحزينة الأسيانة ـ وهى ـ كما سبق وأشرنا ـ لم توهب الغريزة الفنية ، ولذلك كانت ترى فى الكمال الفنى الخالص لونا من المضايقة والاسفاف • ولهذا أيضا كان هذا الجمال الفنى المقيد بالصيغ والبلاغة • يخفى عنها (شخصية) الكتاب الذى تقرأه •

ونحن اذا ابتعدنا عن مثالية (بوالو) المطلقة ، تلك المثالية التى احتشدت فيها الجموع الزاخرة من الشخصيات المثالية ، التى تمتاز كل شخصية منها بقالبها الوطنى الخاص • نجد حكم مدام دى ستال على المثاليات قد اعتدل وامتزج بشىء من الليونة • وهى تتهم أدب الشمال ـ وحتى انتاج شكسبير نفسه ـ بأنه خال من الذوق والطابع الاستعطافى ، وكذلك ينقصه الطابع المادى المحسوس •

وكانت مدام دى ستال بعقليتها الخاصة تتكلم عن الالمان والانجليز، كما لم يتكلم أحد من الفرنسيين قبل ذلك • وهى اذا كتبت أو تكلمت عن أدبهم تركت له الطابع الاجنبى،وقدمته للقارىء الفرنسى فى هيئته الاقليمية التى رسمها له مبدعها الاول •

ظهر كتاب « ألمانيا » لمدام دى ستال سنة ١٨١٠ • وهو كتاب قيم جليل ، وهو من بين مؤلفات مدام دى ستال الكتاب الوحيد الذى يحيا

بأفكاره وآرائه وتدقيقاته العلمية • وهذا الكتاب يمكن تقسيمه الى أربعة أقسام : الاول عن ألمانيا وطبيعه أهلها وخصائصهم وأخلاقهم •• والثانى عن آداب المانيا وفنونها • والثالث عن الفلسفة والاخلاق عند الالمان • أما القسم الأخير فعن عقيدة الحماسه عندهم •

أما عن القسمين الاولين فهما يلامسان الالمان ملامســة مباشرة ، ويعالجان ما ينحصر فى دائرتيهما من مواضيع بدقة محكمة ولذلك يخرج القارىء من هذين الجزئين بنتائج عامة فعالة ، لان مدام دى ستال اتبعت فيها طريقة النقد الرومانتيكى • عاشت مدام دى ستال فى ألمانيا العاطفية الحالمة المخلصة ، وبين الشعب الذى يقوده علماء ما وراء الطبيعة الذين لم تشتد شخصياتهم ولا وطنيتهم فتدفعهم فى طريق وعر عرف عن المانيا فيما بعد • والمانيا هذه ، التى تختلف تمام الاختلاف عن ألمانيا « هنرى هاين » وعن ألمانيا التى عرفتها فرنسا سنة ١٨٧٠ ، وهى ألمانيا التى عاش فيها ونزح منها الكثير من الادباء الذين أخرجوا ثمرات عقولهم بالفرنسية•

والذى يهمنا هنا هو انه بالرغم من ظهور « هاين » واضرابه فان ألمانيا بقيت الى سنة ١٨٧٠ من الاراضى الصالحه لنمو بعض العبقريات الفرنسية فى الادب والفن • ولقد أعطتنا مدام دى ستال فى كتابها هذا صورة قد صبت فى قالب أجنبى هو القالب الالمانى نفسه • لقد أعطت للقارىء لوحة رائعة، كل ما أختير من ألوانها وظلالها ، قد اختير بأمانة وحرية توافقان عقلها الجامح الذى لا يخضع لقيود أو يحد بأغلال •

فى هذه اللوحه التى رسمتها مدام دى ستال لالمانيا ، راعت أن تكون لوحة الادب أظهر ما فيها : تقول مدام دى ستال أن المجتمع فى فرنســا يبتلع الرجل ، ولا يترك له مجالا آخر للنشاط والانتاج • بعكس الحال فى ألمانيا • فالرجل الالمانى لا يميل كثيرا الى حياة المجتمع الصاخبة • ولما كانت العلاقة مستحكمةبين الادب والخصائص الاخلاقية، فان هذا الاختلاف سيولد فى كل من ألمانيا وفرنسا ألوانا مختلفة غير متشابهـة من الادب حاولت مدام دى ستال ــ فى القسم الثانى من كتابها ــ أن تلخص نظريتها فى قسمى الادب : أدب الشمال وأدب الجنوب • ولكنها فى هــذه المدة شخصت هذا التفريق بكلمة أصبحت عنها مأثورة وهى : « أن أدب الشمال يطبع بالطــابع الرومانتيكى ، أما أدب الجنوب ، فيتسم بسيماء الادب الكلاسيكى » •• وهى تصر على أن الادب الابتداعى (الرومانتيـــكى) وهو الادب الوحيد القابل للانفاق والتنقيح ، وذلك لان أعراقه تمتد الى تربة نفوسنا •• هو الوحيد الذى فى مقدوره أن يتضخم ويحيا من جديد لانه ــ كما تقول مدام دى ستال ــ هو الادب الذى «يوضح عقيدتنا ، ويعالج تاريخنا •• وهو يستغل عواطفنا ويستخدمها ليحرك نفوسنا • » لقد استطاعت مدام دى ستال فى هذه المرة أن تتحرر من الذوق الادبى السائد فى القرن الثامن عشر • فهى تجادل وتفارق بين ذوق المجتمع ، وذوق الادب • وتبين ان احدهما يتميز بالطابع السلبى القوى ،• والآخر بالعنصر المحزن المشئوم اذا لم يمازجه الطابع الايجابى القوى •

ولقد استفادت مدام دى ستال كثيرا من محادثاتها الطويلة ، مع

الرجال الذين كانت لهم اكتشافات حديثه فى عوالم الادب والفن والعلم والفلسفة • وقد كانت محادثاتها هذه ايام كانت هذه الاكتشافات لاتزال فى دائرة الفروض التى لم تثبت صحتها بعد •• فروض جزيئة فى علم اللغة والتاريخ • ولقد زادها ذلك معرفه بالحقائق فيما بعد • قالت مدام دى ستال كلمتها عن (شعر الحماس) • تلك الكلمة التى هدمت الفكرة الفرنسية عن هذا اللون من الشعر ، وهى الفكرة التى ولدت فى عصر النهضة ،

والتى تقول أن شعر الحماس « هو قصة رمزية وخرافية » • فهى تقول ان الالياذة والاوديسة « هما فى الواقع» كانتا من الاقاصيص التى ترويها المرضعات •

فهمت مدام دى ستال الشعر الالمانى • بل نجد ان هذا الشعر قد تغلغل الى نفسها مع هواء تلك البلاد ، سواء أكان ذلك من شعر الطبيعة أم من الشعر الغنائى • وهى قد خففت من غلواء شعورها الارستقراطى ، ولم تنفر من «هرمن ودوربتيه» و «جييوم تل» • ولقد أحبت على الخصوص ذلك اللون الملتف بازار قاتم من الغموض والتعقيد • لان هذا اللون فى رأيها يغذى الفكر ويدرب الذكاء ، ويدفعه الى العمل • وهو فوق ذلك كله يحرك العواطف ويجعلها تمتزج وتختلط بالعناصر الفلسفية المختلفة •

ولذلك فقد أثر فيها أكبر الاثر كل من : لسلنج ، وهردر ، وشليجل ، وتحركت نفسها من الاستعارات والمجازات الفنية التى شاعت فى قصة « فاوست » الخالدة • وكانت مدام دى ستال فرنسية حقا حينما وجهت مجهودها الرئيسى الى المسرح ، والادب التمثيلى • فهى تـريد أن تكون الموضوعات التمثيلية حافلة بالعناصر التاريخية ، كما تحب أن يختلط العنصر الشاعرى بعنصر الدرام • وهى تقول ان « الغرض الفنى ليس هو الغرض الوحيد الذى يعرفنا اذا كان البطل قتل أو تزوج ! » وهى تقدم لنا النموذج الحى للادب التمثيلى فى انتاج « شيلر » و « جوت » فقد درست انتاجهما طويلا ، وشيكسبير التى كانت ترجع اليه دائما • ويمكن القول أن ملاحظات مدام دى ستال هذه قد عينت القالب (الهيكل) ، واتجاهات الدرام الرومانتيكى • ومدام دى ستال قد هزت بعنف بعض القواعدالمقررة فهى التى صاحت قائلة :

« يقول البعض ان علم اللغه قد حدد فى يوم معين من شهر معين • وانه بعد هذا التاريخ يعتبر ادخال كلمة جديدة على المعجم عملا توحشيا • والبعض الآخر ، يؤكد أن القواعد الخاصةبفن (الدراما) قد حددت تحديدا نهائيا فى سنة معينة • وأن العبقرية التى تحاول الآن تغيير أى شىء قد أخطأت لانها لم تولدقبل هذهالسنة، التى تمت فيها كل المناقشات الادبيةعن الماضى ، والحاضر والمستقبل • واخيرا ، وفى علم ما وراء الطبيعة عـلى الخصوص ، قدر البعض أنه من بعد « كونديلاك » ، لا يستطيع المرء أن يخطو خطوة جديدة من غير أن يضل ! »

موقف مدام دى ستال هذا هو موقف ثورى عام •• فهذه هى الثورة التى تتمثل فى وقوف الشخصية موقف العداء أمام القوانين المتبعـة التى يخضع ويذعن لها الناس •

كان حلم مدام دى ستال هو تحقيق فكرة «الادب الاوربى» • هى تريد حفلة رقص جامعة ، تحمل فيها كل أمة (نوتتها) الخاصة • أوتجارة تربح فيها كل أمة من انتاج غيرها • وهى تقول فى هذا الصدد ما يلى :

« يجب على الامم أن تستخدم المرشدين ؛ فتبعث هذه بمرشديها الى تلك • وكل الامم تكون على خطأ عظيم اذا حجبت الانوار والاضواء التى تستطيع أن تقرضها لغيرها • يوجد هناك بعض الاشياء الجوهرية التى تفرق بين شعب وشعب : الجو ؛ ومناظر الطبيعة ؛ واللغة،ولون الحكومة، واخيرا على الاخص الحوادث التاريخية الخاصه بكل أمة • وكان من جراء هذه الفروقات ان تعذر على أى رجل ـ مهما كان من العباقرة ـ أن يتكهن بما يجول فى عقل زميله الذى يعيش على تربة غير تربته، والذى يستنشق هواء غير هوائه » •

ومدام دى ستال تحض كل شعب من هـذهالشعوب على جمعافكار وآراء الشعوب الاخرى • وتقول أنه اذا أدت كل دولة هذا العمل اصبحت الضيافة مصدر ثروة فكرية لمن يلبيها وبذلك وحده يقضى على الحالة الشاذة التى وصفناها •

كانت هذه النصيحة حسنة وعملية فى نفس الوقت • فقد أصبحت التيارات الادبية الهامة للقرن التاسع عشر هى تيارات الادب الاوروبى • وبذلك تحقق حلم مدام دى ستال ، وخرج من الظلام الى النور •

فيكتور هيجو

(١٨٠٢ ـ ١٨٨٥)

نقاط البحث

- لوحة حياته .
- مؤلفاته الشعرية .
- هيجو والمذهب الابتداعى (الرومانتزم »
- فيكتور هيجو قبل سنة ١٨٥٠
- هيجو بعد سنة ١٨٥٠

فيكتور هيجو من أزهار الشعر اليانعة التى أشرقت وتفتحت فى القرن الماضى ٠ وكان تفتح هذه الزهرة الخالدة من أكبر الاحداث التى رآها هذا القرن المدفون في قبر الزمن ٠ لقد كانت أشعاره جميلة جذابة قوية ٠٠ كانت كما قال بايرون يصف قريبته مرجريت باركر : «كأنها صنعت من قوس قزح ٠٠ كلها جمال وفتنة» ٠

لوحة حياته :

فيكتور هيجوهو ابن الجنرال هيجو ٠ ولدفى « بسانسون Besançon. سنة ١٨٠٢ ٠ ولماكان أبوه ـ بحكم منصبه العسكرى ـ يتنقل ولايستقر، فقد تبعه ابنه الى ايطاليا وأسبانيا ٠ وهناك ـ فى أسبانيا ـ ابتدأت حياته الدراسية ، فقد الحقه والده بمدرسة الرهبان بمدريد ٠ وبعد مدة قصيرة رجع الى وطنه ، وعاش فى العاصمة مع أمه فى منزلهما الجميل الذى ورد ذكره فى أشعاره ٠

شعر هيجو وهو فى ربيع حياته أن القدر قد أعده لعمل شيء عظيم ٠ فأخذ ينتظر ، ويؤهل نفسه ليجعلها على أتم الاستعداد لمواجهة ما سيتمخض عنه المستقبل الغامض ٠ وأخيرا فتح له القدر كتاب حياته ، فقرأ هيجو فيه أنه سوف يعيش للفن والادب والشعر ٠

أصبح اسم هيجو وشعره على كل لسان ٠ ولقد كرم الملك لويس الثامن عشر الادب فى شخصه بأن ربط له معاشا سنويا ٠ فكر هيجو فى الزواج وكان ذلك بعد ظهور « أغانيه » بمدة قصيرة وفعلا تزوج وهو لا يزال شابا يافعا ٠ لم تكن الاحوال السياسية فى فرنسا هادئة أو مستقرة ، بل كان مرجل السياسة يغلى ويفور ٠ فنفى هيجو مع من نفى الى خارج فرنسا فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٤٨ وهنا تحول عن مذهبه السياسى الاول وأصبح من أنصار الجمهورية ، واعتنق المبادىء الديمقراطية سنة ١٨٥٠ ٠ كان هيجو فى أول الامر من المجندين للملكية ، ولكنه سرعان ما نبذ هذا المذهب وأندرج فى سلك الاحرار ٠ وفى ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ عاد هيجو الى فرنسا وعاش فيها هادئا حتى وافته منيته سنة ١٨٨٥ ٠ لقد كان موكب الجنازة من الاحداث التى تكلم عنها أهل فرنسا طويلا ٠ فقد تجلى فيه حب وتبجيل الشعب الفرنسى بأسره للراحل الفانى ، وأدبه الخالد !

مؤلفاته الشعريه :

الاغانى سنة ١٨٢٢	Les Odes.
الشرقيات سنة ١٨٢٩	Les Orientales.

أوراق الخريف سنة ١٨٣١ — Les Feulles d'automne.

أغانى الشفق سنة ١٨٣٥ — LesChants Du Crepuscule.

الاصوات الداخلية سنة ١٨٣٧ — Les voix interieures

الاشعة والظلال سنة ١٨٤٠ — Les rayons et les ombres

وفى المدة المحصورة بين سنتى ١٨٦٥ ، سنة ١٨٨٣ أخرج هيجو هذه المجموعات الثلاث :

أغانى الطرق والغابات سنة ١٨٦٥
Les chants Des rues et des Bois

السنة المهوله .. سنة ١٨٧٢ — L'annee Terrible .

ومجموعتان جديدتان من «قصة العصور» (١٨٧٧ - ١٨٨٣)

ثم أخرج كتابه — L'art d'etre grand pere ,

وأخيرا رياح العقل الاربع .. — Les Quatre vents de l'esprit

***

هيجو والمذهب الابتداعى (الرومانتزم) :

اذا كانت الحرب السبعينية التى نشبت بين فرنسا وألمانيا ، قد اعتبرت من وجهة نظر التاريخ السياسى نهـــاية مرحلة زمنية وبداية أخرى ، فان هذا الحدث التاريخى الفاصل بين المرحلتين لا يظهر بمثـل هذا الوضوح والجلاء فى تاريخ الادب الفرنسى .

ويمكن تعليل هذه الظاهرة بقـــولنا ان حرب الســـبعين كانت عسكرية أكثر منها اقتصادية ومن طبيعة هـــذا اللون من الحروب أن تقتصر فئة واحدة من طبقات الامة فى خوض غمارها دون الفئات الاخرى، ونقصد بهذه الفئة رجال الحرب المسئولين . ولكن هذا لايمنع من ظهـور بعض الكتاب والادباء الذين يخوضون الحرب بألسنتهم وأقلامهم . وهذا ما حدث فعلا فى فرنسا ابان حربها مع غريمتها ولكن طابع الادب العام لم يكن هو الطابع الحربى ، لأن معظم أدباء فرنسا تحرروا مما يمكن أن نسميه « أدب الحرب » .

ولادة مذهب الرومانتزم :

كان من نتائج حركة الاصلاح الشاملة التى قامت بها ملكية يولية ان ولد مذهب جديد فى عالم الادب هـــو مذهب الرومانتزم أو الادب الابتداعى وقد استمرت حركة الاصلاح هذه حتى شاهدت انتصار هـذا المذهب وشيوعه . ضرب هـــذا المذهب الفتى ضربته القاصمة ، وقلب أوضاع الادب « الكلاسيكى » رأسا على عقب وأحدث ما أحدثته الثـــورة الفرنسية الكبرى من انقلاب عظيم فى سياسة فرنسا التقليدية .

الخصوم والاتباع :

ثم جاءت الامبراطورية الثانية وظهر فى خلال حكمها خصوم المذهب

الجديد كان بود ليرورينان وفلوبير تختلف أمزجتهم الادبية كل الاختلاف، ولكنهم شعروا بخطورة هذا المذهب الوليد ، فتعاونوا لايقاف تيار « الحركة الرومانتزمية» الجارف وكأن القدر هو الآخر كان فى صف الخصوم ، فما أن سقطت هذه الامبراطورية حتى اتفق ان أفلت نجوم كثير من الادباء الذين يمثلون حركة الادب الابتداعى ومنهم لامرتين شاعر الحب والجمال ، وسانت بف الذى توفى سنة ١٨٦٩ وديماس مريميه توفى سنة ١٨٧٠ ، وجوتيه توفى سنة ١٨٧٢ .

وهكذا شاءت المصادفات العجيبة أن يختار الجيل الجديد فى الحياة الادبية سنة ١٨٧١ زعماء الادب والفن من أعداء مذهب الرومانتزم . وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل كان للحرب السبعينية أى تأثير فى القضاء على هذا المذهب ؟ الواقع أن الحرب ، بل والهزيمة نفسها لم تفقده شيئا من نورانيته الفنية ، بل هى المصادفات وحدها التى عجلت بالقضاء عليه .

صحوة ما قبل الموت .. فيكتور هيجو :

كانت حاجة هذا المذهب القصوى ــ لمنعه من الاحتضار السريع ــ هى تصفية عناصره المتشعبة المتشابكة ــ ان صح هذا التعبير ــ واتمام ما بدأه رجاله العظام .

بعد عملية التصفية هذه قوى المذهب بعض الشىء حتى نجد أتباعه قد أطلقوا من جديد البخور فى معابده وهياكله ، وأخذوا يقدسون آلهته واستمروا على حالتهم هذه حتى آخر أيامه .

من هذه المقدمة القصيرة يمكننا أن نعلل انتصار فيكتور هيجو بعد سنة ١٨٧٠ بأنه كان كانتصار فولتير فى أواخر حياته الادبية لايرجع سببه الى العنصر أو الروح الادبية وحدها بل مرجعه كذلك الى شخصية الشاعر نفسه .. ذلك الشاعر الذى جسد المقاومة التى لايمكن قهرها . فلما رجع الى فرنسا أحاطته هالة بطوليه أخذت تقذفه من نصر الى نصر، وأنزلته أكبر منزلة فى نفوس معاصريه .

أما تأثيره الحقيقى على النفوس فيرجع الى اعجاب الشعب بعبقريته ، وبطريقة ترتيله وانشاده فى المناسبات الرسمية والوطنية . وكذلك لوصفه المهول لفترة من تاريخ فرنسا مضت وأصبحت فى ذمة التاريخ . وهكذا ترجع منزلته الى هذه العناصر أكثر مما ترجع الى اعجاب الناس بفتوحاته الشعرية الجديدة فى اسفاره الكثيرة .

بلغ هيجو فى كثير من كتبه مثل «التأملات» و «قصة العصور» الذروة فى شعره الغنائى ، وشعره الحماسى ، وشعره الهجائى ؛ على الرغم من أن قصائده فى أواخر سنى حياته كان محورها نفس المواضيع ولكن كانت له نغمة خاصة به يجددها باستمرار فتضفى على كتاباته ألوانا من السحر والعذوبة . وكذلك تمتاز بعض كتبه كما سنبين بعد بالتفصيل ــ بعنصر جديد هو عنصر الانانية الذى تفشى فيها بأبشع الصور وأقبحها فظهرت من جراء ذلك الكثير من الحوادث الطفولية حتى سمى الادب فى

ذلك العهد « الجد العتيق » أو لون من ألوان التنجيم والتخمين وهـذه الظاهرة نجدها واضحة فى الاجزاء الاخيرة من « قصة العصور » ..

ولكننا نرى هيجو مع مر الاعوام تتسع دائرة تخيلاته ، وتنبسط قواعد تفكيره ويتجه بكل كتاباته فى طريق النور نحو هـدف معين .. الانسانية . ولقـد كانت روح كتابته ساذجة أملتهـا عليه الظروف الدينية . فهو يعتقد ان سلطة البابا أو الحبر الاعظم تقوم دعائمها على سلسلة متصلة الحلقات من الاعمال التى تذهل رجل الشعب ببساطتها وسذاجتها . هو يمجد الانسانية فى كل ما يكتب فنراه مثـلا يصف آلام الموت فيبدع فى الوصف ، ويهاجم كل مسئول عن قصل الرقاب البشرية من ملوك وقساوسة وغيرهم . وبمعنى آخر هو يصف البؤس بكل ألوانه ويرجع أسبابه الى أعداء بذاتهم . وهو اذا فتح على نفسه باب المناقشة فى هذا الموضوع فاض بيانه وجرف أمامه كل شىء . وكان عادة يضمن هذه المناقشات الكثير من الكتابات والتلميحات ذات المغزى فى الحوادث المعاصرة له . وهو بكتابته فى هذا الموضوع بالذات قـد أخرج للناس معجما لمفردات عظيمة القيمة .

أما هيجو القصصى فيطير مع الخيال الى أودية مجهولة لاتعرف الحقيقة ولا حتى احتمال الصدق . هذا الجو الخيالى البعيد كل البعد عن الواقع هو الجو الذى يعيش فيه أبطال هيجو . فى هـذا الجو تتشابه الاصوات البشرية وأصوات الطبيعة من دمدمة البحر الى عويل الرياح .

ولكننا نجد هيجو ــ رغم كل ذلك ــ قد حافظ فى دخيلته ، وفى صميم انتاجه ، بعناصر اعجاز ؛ فتحت نظرته الفاحصة .. نجد الاشياء تنتعش ويدب فيها الهياج ، فتفصح له عن نفسها وترتسم فى مخيلته ، حتى اذا وصلت لعقله لقحته بثمرة طيبة من الصور والاسـتعارات والمجازات والتشبيهات ، فيصوغها فى اطار معجز فكه ، ولكنه لا يخلو من التعقيد .

احتضار المذهب .. لوكونت دى ليسل :

سحر شباب الشعراء بهيجو وعدوه أماما لهم وزعيمـا ومثلا يقتدى به ، الا لوكونت دى ليسل الذى نصب نفسه محاربا لهيجو ومذهبه تلقى لوكونت دروسه الفنية من شعراء أكسبتهم القراءة والتفـكير نزعة فكرية خالصة من شوائب التأثير والتقليد . فنهـل من منهلهـم .. من بحيرة الادب الرائق الصافى . وهكذا غرست فى نفسـه مبادئهم التى تتلخص فى عدم الخضوع لما يسـمى بالمبـادىء الثابتة الجامدة التى لا تتغير . قال لوكونت دى ليسل عن مذهب الرومانتزم : « فن قديـم مركب ومعقد .. هو مهزلة وهاجة الاطار ولكنها فارغة خاوية .. «وقال أيضا : «نحن قوم علماء فواجبنا الاول يدعونا الى تقريب الفن والعـلم أو مزجهما اذا استطعنا الى ذلك سبيلا ». ثم قدم للقراء شعره الحديث، وتعمد أن يحطم فيه سلاسل الشعر الغنائى (الرومانتزمى) لانداده من الشعراء . قال لوكونت .. « ان زمننا الحالى لا يبيح للشاعر غـير

الصمت ، أو القضاء على طبيعته الفنية لفائدة الصياغة والقيود الشعرية . ثم استطرد فقال : « ومن أجل هذا تراني أبغض زمني وأمقته ! » .

كان من نتيجة هذه التصريحات الصارخة ان طارت شهرة لوكونت وذاع اسمه وأصبح يتمتع بمركز ملحوظ ، وقوة لايستهان بها وجهها ضد جماعة (الرومانتزم) فأخرجوه من دائرتهم .

ينحصر انتاج دى ليسل الحيوى فى ثلاث مجلدات صغيرة . ولكن هذا الانتاج الضئيل أتاح له الفرصة الذهبية التى كان ينتظرها لمواصلة كفاحه . لقد فتح له هذا الانتاج أبواب الاكاديمية الفرنسية سنة ١٨٨٧ وبذلك تربع على العرش الذى كان يحتله فيكتور هيجو من قبل .

كلمة أخيرة !

لم يكن كل أنصار مذهب الرومانتزم يحتقرون التجديد وينفرون منه . بل نجد منهم من حارب بعض أوضاعه كتيوفيل جونيه المثال الشاعر الذى تعالى بالفن ودفع عبادة الاوضاع والقيود الشعرية دفعه تقرب من دفعة لوكونت دى ليسل نفسه وبانفيل الذى حفر حفرة واسعة وألقى فيها بهذا اللون من الشعر المقيد . كما ظهر منهم من أعطى للمعنى أوفر نصيب من عنايته ، وقلل من قيمة صيد القوافى والتقيد الجامد بأوزان الشعر المحدودة .

ولقد استفاد الشعراء من هذا الدرس ، وأخذوا يتحولون عن هيجو بعد اخلاصهم الاعمى له ، وينظرون لزعماء الجيل السابق نظرة تحفظ . وهكذا تحول عطفهم وثقتهم الى لوكونت دى ليسل الزعيم الجديد الذى شن الحرب باسمهم على كل أوضاع وعناصر المذهب الابتداعى .

فيكتور هيجو قبل سنة ١٨٥٠ :

كان لامرتين فى ذلك الوقت قد أخرج خير انتاجه ، أما فينى فلم يستطع أن يكون لنفسه مدرسة شعرية يرأسها وتنتسب اليه على مر العصور . أما هيجو فكان يتمتع بكل ما يساعد الاديب الفنان على القيام بمثل هذا الدور العظيم . لقد كان يتمتع بالقدرة الفائقة والارادة الجبارة ومن المعروف أن المرء اذا تمتع بمثل هاتين القوتين ففى مقدوره أن يأتى بكل الاعمال ! لقد كانت كبرياؤه فى السماء ولذلك استطاع أن يفرض عبقريته على معاصريه ، ويجعلهم يحبونها ويجلونها . كان هيجو أقل حساسية من لامرتين وأضعف تفكيرا من فينى . ولكنه كان خصب القريحة قويها ، دائم الانتاج والابتداع .. ذلك الانتاج الذى كان ينهال كالصاعقة على الجمهور وعلى خصوم الشاعر المغرورين .

يستطيع المؤرخ أن يعد انتاج هيجو ـ اذا قارنه بشعر لامرتين الحزين الهادىء ، وفلسفة فينى الشعرية ـ الانتاج الصحيح الذى يعبر خير تعبير أو يمثل أحسن تمثيل الادب (الرومانتيكى) الفرنسى . بدأ

هيجو بانشاء قوالب جديدة لشعره وأخذ يلون هذه القوالب بريشـــته الفنية الخاصة · حتى اذا فرغ من ذلك أخذ يملأ هذه القوالب بأشـعار تفيض بشتى ألوان الاحساسات وهكذا أصبحت أشعاره هـــذه ·· تلك الاشعار المطربة الرنانة ، تشع هـــــــذه الاحساسات وتقذفها فى نفس القارىء ·

أنشأ فيكتور هيجو سنة ١٨٨٢ عالما جديدا · لقـــد خلق (شرقا) جديدا وهميا · وذلك لأنه لم ير فى طفولته الا أسبانيا فقـط · ولكنه انتفع ـ كما يفعل دائما ـ بالعناصر التى رآها آنذاك · انتفع بالعنصر الادبى الاسبانى ، وبالحوادث السياسية المعاصرة لحرب الاســـتقلال اليونانية · ولقـــد جاءت شرقياته « كاغانيه » نتيـــجة لوحيه الذاتى واحساساته الفريدة العميقة · ويرجع نجاح هذا الكتاب الى صوره الحية الناطقة ، ونغمات شعره المجلجلة المطربة ·

أعلن هيجو فى نهاية كتابه عن شعر جديد يتميز بذاتيته المطلقة · وكانت السنة في ذلك الوقت تحتضر وتلفظ أنفاسها الاخيرة فى شـــهر نوفمبر ، ذلك الشهر الذى تتساقط فيه ·· أوراق الخريف !

أخرج هيجو ديوانه الجديد « أوراق الخريف » سنة ١٨٣١ وهذا الديوان يحوى من غير شك خير المقطوعات التى تتصل مباشرة بعواطف الشاعر واحساساته وكانت هـــذه الاحساسات هى احساسات طبيعة سليمة قوية ·· طبيعة هادئة تحوى بعض العناصر مثل : الهوس الشعرى السقيم ، والعواطف المجلجلة الرنانة ، والقـــلق المؤلم · كان الشاعر يتكلم بطلاقة غريبة فيرسل شعره كالنهر الذى يتدفق بشدة الشـــلال الفتى · وفى هذا الكتاب يظهر بوضوح وجلاء حب هيـــجو للاطفال · فالاطفال عنده هم مدار وعماد ادراكه وحبه العاطفى للعائلة · هو يتكلم عن والده وعن نفسه بحنان وعذوبة ، وبرقة أخاذه تثير كوامن النفوس · وكانت هذه العواطف اللينة الهادئة كثيرا ما تخفف وتلطف من عــــودة الشعر الى العنصر الكلاسيكى · من الواضح ان الشعور الذى تفيض به نفس هيجو الدقيقة التنسيق القوية الثائرة غير كاف وحده أن ينتج هذا الشعر وان انتاجه نفسه لا يكفى لملء هذه القوالب الكثيرة التى يخرجهـا الخيال باستمرار ومن غير انقطاع · كان الشاعر يترك نفسه على سجيتها تتحدث بما تريد ، ولكنه كان لا يترك عاطفته تقود هذا الحديث الى حيث تريد · ولهذا ظهر فى كتابه « أوراق الخريف » العنصر الحماسى الذى يبعد عن تمثيل الذاتية الشخصية ويقترب من شعر الطبيعة العام · لقد كان لشعر هيجو مبدأ قوى يجلجل فى كل أرجاء فرنسا ثم يعود فينعكس على الشعر نفسه : فالشاعر كان يخص الحوادث البارزة لعصره بنصيب وافر من شعره ، وكان يجمع عناصر موضوعاتها من الصـــحف والرأى العام · وهكذا ارتدى فيكتور هيجو رداء الواعظ !

نابوليون هذا الاله الذى ستكون آنت كاهنه !

بذل هيجو أقصى ما فى وسعه ليـــكون المعبر الصحيح عن آمال عصره والناطق بلسان أهل فرنسا جميعهم · فكان يدرس بدقة مشاكل

هذا القرن ويحاول أن ينفذ الى مسائله الكبرى من خلال طبقة الهـــواء السميكة التى تغلفها وتحجبها عن الظهور · ولقــد اصطنع فى معالجتــه لهذه المسائل والمشاكل شتى أنواع المجازات والاستعارات أو الكنايات التى تسبب للقارىء التخدير والدوخان ولقد جرب هذا اللون من التعبير في شعره ولكنه لم ينجح الا فى بعض المقطوعات التى توخى فيها المغالاة والتفخيم لكى يعلمنا معنى الشـــفقة والرحمة ! وفى نفس الوقت كان يدرس بعض الموضوعات الغريبة لما وراء الطبيعة : لقد ترك ظل آســـيا وأخذ يعالج الحقيقة القريبة · ولهذا أعطانا عدة لوحات باريسية رسمتها ريشته من شواطىء انهار فرنسا عن البحر وغروب الشمس وأفولها · وهو بعمله هذا قد بين المنفعة التى استخرجها من الطبيعة واستخدمها فى التعبير الرمزى عن الفكرة ·

انتهى كتاب « أوراق الخريف » وقد وعدنا الشاعر بلون جديد من الشعر هو الشعر الهجائى · ولقد حقق هـــذا الوعد فى أول قسم من ديوانه « أغانى الشفق » الذى طالع القراء سنة ١٨٣٥ أما الموضـــوعات التى عالجها هيجو فى هذا الكتاب فهى : حفلة رقص فى فندق دى فيل ـ الانتحار ـ قبر نابوليون الاول ونابوليون الثانى ـ انتخـــابات المجالس النيابية وغيرها · وجه الشاعر نفسه الثائرة ·· المضطربة الى هـــذه الموضوعات وكان فى ذلك الوقت نصف صحافى ونصف منجم اذا صـــح هذا التعبير فحاول جهده أن ينقد ويحكم أو يتنبأ ويلعن ··

أما الجزء الثانى من هذه المجموعة الشعرية الجديدة فيقدم للقارىء لونا طريفا من الاشعار تقل فيها الغرابة وتكثر عواطف الحب الحنونة · ولكن لا يوجد هناك عواطف عميقة أو مبتدعة بل كل ما يجده القـارىء لا يتعدى العواطف العادية المصبوبة فى قالب شـــعرى يشـــيع الطرب والموسيقى : وأسلوب رائع جميل يزيد من نورانية الشعر ·

مزج فيكتور هيجو فى كتابه الرابع « الاصـــوات الداخلية » كل الالهامات والعواطف التى وردت فى كتابيه السابقين · فنحن نجـــد فيه: تأملات عن أعمال اليوم ، ونداء لطيف لعهد الطفولة الاول ، ودروس تكاد تكون فارغة مبتذله للابيقوريين والاغنياء ، ولوحات وصفية دقيقة غريبه، وأخيرا يبسط هيجو ما يراه صالحا لعلاج شرور العصر · وفى هـــذا الكتاب يظهر الانتاج الرمزى الاول لهيجو « البقرة » · وليس عمله هنا يشبه عملا فنيا ، بل هو لوحة رائعة يقدمها لنا هيجـــو ·· لوحة تكفى نفسها بنفسها لما تحتويه من عنصر ذاتى خالص ولقد استطاع الشاعر أن يفهم القارىء خلال لوحته هذه شيئا من فلسفته الخاصة ·

وفى سنة ١٨٤٠ ظهر كتابه « الاشعة والظلال » وهو يقدم لنا فيه نفس عملية المزج أو الخلط التى شاهدناها فى المجموعة الشعرية للكتاب السابق · ولكن هذه المجموعة الجديدة تجعلنا نتقهقر الى الوراء عـــدة خطوات ·· نتقهقر حتى نصل الى « الشرقيات » أو الى « الاغانى » · هذا فيما يختص ببعض القصائد ، أما بقية القصائد فتجعلنا نستشعر ونحس بالعواطف والوجدانات البشرية التى تظهر فى قصته الخالدة «البؤساء» ·

وذلك لأن الشاعر يحس هنا أكثر من أى وقت مضى ، إنه النـــجم الذى يفود الشعوب نحو المستقبل · ولهذا نراه يضع نفسه موضـــع الواعظ الهادى ، الذى يبصر شعبه بحوادث اليوم وحكمتها ، سوف يرى القارىء فيكتور هيجو فى هذا الكتاب وقـــــد ارتدى لباس الاخلاقى المتزمت أو الكاهن الذى ينتقد بمرارة وشدة دنايا هذا العالم الفانى ·

صمت الشاعر بعد سنة ١٨٤٠ ولم يعد يسمع لذلك الطائر الغرد غناء فى دوحة الشعر ذات الافنان الباسقة · ولقد استمر هـــذا الصمت ١٣ سنة كاملة لأن نفس الشاعر كانت مسرحا لعواطف مختلفة متضاربة · فهو متشكك فى الالهـــام وفى ســـيادة الصنعة الشعرية ، وفى حقيقة الاحساسات التى تختلج فى قلبه وتكاد تمزق أضلاعه · لقد بذل جهده ليكون السيد الاول فى حلبة الشعر · ولكنه اكتشف فجأة انه كان فى تلك الحقبه من حياته لا يزال يتحسس طريقه ويبحث عن صـــوته ! هـــو لا يتمتع الى الآن « بصوت الشعب » ولم يصل بعد الى ملء شعره بتيارات عصره الكبيرة · لقد تحول عن الملكية وانضم تحت لواء حزب الاحرار ، ولكنه رغم ذلك بقى بعيدا عن موجة الديموقراطية التى غمرت فرنســـا سنة ١٨٣٠ ولهـــذا بقيت غرائزه الانســـانية متذبذبة مترددة ومشـــتة مبعثرة · وفى سنة ١٨٤٨ وفرنسا تحت الحـــكم الجمهورى نرى هيجو يميل الى اليمين ·· الى الامير لويس بونابرت · وأخيرا وبعد مدة طويلة وصل هيجو الى تعشق الديموقراطية والجمهورية ســـنة ١٨٥٠ وبذلك قبض هذا الشاعر على منبع الالهام الذى كان فى أشد الحاجة اليه لتنشيط خياله واثارته من جديد ·· ذلك المنبع الذى سيجعل من فيكتور هيجو المعبود الشعبى لثلاثين سنة آتية ·

يجب أن نلاحظ ان فيكتور هيجو قد ابان قبل سنة ١٨٥٠ شخصيته الرومانتيكية بوضوح فى القصص والتمثيليات ، وان هذا الوضـــــوح لا نجده فى شعره قبل هذا التاريخ ففى القصة كان رومانتيكيا خالصـــا منذ ١٨١٣ حينما أخرج han d'islande المعاصرة « لاغانيه » الكلاسيكية ثم أخرج بعد ذلك « نوتردام دى باريس » فكانت من القصص الخالدة فى عالم الادب الابتداعى · ومع ذلك فلم تكن القصة هى الســـبب فى ذيوع اسمه وابراز مواهبه · بل يرجـــع الســـبب فى ذلك الى شـــعره (الدراماتيكى) · ومن أجل ذلك يمكننا أن نقول انه من سنة ١٨٢٧ التى اتم فيها cromwell الى سنة ١٨٩٣ التى طبع فيها Les burgraves قد كرس أو استخدم الجهود القوية الشديدة لعبقريته · وأخيرا فى Le rhin سنة ١٨٤٢ يعطينا هيجو لوحه تشـــبه فى كثـــير من الوجوه لوحة « الشرقيات » فى هذه اللوحة نرى العواطف الجياشة التى تبعـــد عن الاحلام الشاعرية ، والتقدير الصحيح لقيم الاشياء والصور التى تنشأ عن تأثير مباشر من الطبيعة · لقد استخدم هيجو فى كل هذه الكتب ميزاته الفنية وطبقها خير تطبيق : فكل ظواهر العالم الخارجى الكبرى ـ تاريخية وطبيعية قد أثرت وتأثرت بخيال هيجو الملتهب الثائر ، وأخذت تنتظم فى صور واسعة غريبة تتحلى بالوان زاهية من الرموز والمجازات · بقيت لنا كلمة قصيرة نقولها قبل أن نسدل الســـتار على حياة هيجو الفكرية قبل سنة ١٨٥٠ ·

لقد اتمت عبقرية هيجو تفتحها واشراقها فى الوقت الذى كان فيه المذهب الواقعى يصفى ميراث المذهب الابتدائى ٠

❋ ❋ ❋

هيجو بعد سنة ١٨٥٠ :

فيكتور هيجو من الشخصيات الادبية المعقـــدة نوعا ما ٠ فبعض جوانب هذه الشخصية يناقض بعضها الآخر كما لاحظ الكثير من مؤرخى الأدب الفرنسى ٠ فنحن نلاحظ مثلا أن بعض العناصر الخاصة التى تتكون منها هذه الشخصية بسيطة أو متوسطة بينما بعضها الآخر فيه شىء من التعقيد والتنافر ٠

كان هيجو شديد الغرور محبا للزهو والخيلاء شديد الشـــوق الى اعجاب الجمهور به وتقديرهم ، أو على الاصح تقديسهم لعبقريته ٠ ولهـذا نراه يشغل بصغائر الامور ليخلق حوله جوا يعبق بالعظمة ويفوح بالكبر لم يكن هيجو يخشى أو يهاب شيئا بل على العكس هـــو يتمتـــع بجرأة واسعة تدفعه دفعا الى أن يهاجم ويسخر ويهزأ بكل من تسوغ له نفسه جرح كبريائه أو خدش شخصيته من بعيد ! لم يكن هـــذا الشاعر الكبير رغم سلوكه الراقى وآدابه العالية يحب الاجتـــماع لأنه لم يخلق لذلك اللون من الحياة ٠ هو فنان كبـــير ، ولكنه فى نفس الوقت بورجوازى كبير : دائب العمل والتنظيم ، قد تطبع بطباع البورجوازيه ٠ أى أنه كان خشنا بعض الشىء وخاصة اذا تملكه الغضب أو اذا استفزه انسان ٠

ولكن أهم جوانب هذه الشخصية جميعا هو الانانية ٠ هذه الانانية المتسلطة التى شعر بها أصحابه وأعداءه على السواء ، وأحسوا بوطأتها عليه وعلى أنفسهم ، الانانية عند هيجو تتلخص فى كلمة « أنا » أى أنها أنانية ممزوجه بالكبرياء ٠

لم يكن هيجو لينا : فهو حينما يتكلم عن الحب الذاتى نراه يمزجه بالزخارف اللفظية الصارخة ، وبذلك يبتعد تماما عن منبـــع العواطف الحقيقية ٠ وهيجو يحب كثيرا وهو فى أعلى قمته الشعرية أن يرى حب المرأة « يقبع تحت قدميه كالكلب » ٠

هذا جانب من شخصية هيجو فى اطار الحياة العامة ، واليك جانب آخر ـ يناقض هذا الجانب كل المناقضة ـ وهو الجانب الذى يبين لنـــا هيجو وهو داخل المحيط العائلى ٠ يمتاز شاعرنا الكبير باستعداد خاص يؤهله لوصف حوادث العائلة بدقة واعجاز ، وبقدرة فائقة على التعبـــير عن احساساته كوالد أو جد ٠ فى هذا المقـــام وحده يتسرب اللين الى نفسه ويمتلك عليها كل شعابها لقد تكلم بنغمة مؤثرة عن البيت العائلى وعن حبه للاطفال فى كتابه « كيف تكون جدا » ا وبين لنـــا أن وظيفـــة الجد هى كوظيفة الحبر أو القسيس كلها وداعه ولين وحنان ٠ ولم يكـــن هذا الكتاب هو الوحيد الذى تغنى فيه هيجو بحبه للاطفـــال بل لقد سبق وأورد فى « أوراق الخريف » مقطوعات كثيرة عن الاطفال نظمها ببساطة آخاذة ٠ وكان ذلك حينما فقد سنة ١٨٤٣ ابنته وصهره فى حادثة غرق بالقرب من « فيليكوير » ٠

لقد أطلعنا على يأسه ، وبسط لنا ذكرياته الشـــاحبة المحزنة » وتوسلاته للخالق العادل الذى يؤمن به ويذكره فى كل لحظة من لحظات حياته • كل ذلك يطالعنا فى كتابه العظيم « التأملات » ذلك الكتاب الذى لا يمكن أن يرقى العمل الفنى فيه الى تلك الذروة التى بلغتهـــا عذوبة العواطف وشدة الاخلاص فى ابرازها كما هى قوية مؤثرة أعظم التأثير •

ونرى انه من العـــدل كذلك ان نضـــيف ان (الحب الجمعى) للانسانية وللتعساء والبؤساء قد ظهر بوضوح حقيقى عند فيكتور هيجو• وذلك لأن هذا الحب يرتبط بنفس الشاعر التى لامست الحياة ملامسة مباشرة ، وعرفت ما يقاسيه المرء فيها وكان من الطبيعى بعـــد ذلك أن نبت فى نفس الشاعر عاطفة جديدة •• كلية فمن المعروف أن الذى يحب يجب أن يعطف على من يحب لانه يشعر بآلامه فيتأثر بها ويحاول جهده تخفيفها أو ازالتها اذا أمكنه ذلك • وهكذا نبعت فى نفس هيجـــو عاطفة « الرحمة الاجتماعية » التى سبقت ردته السياسية •

ولكن هذه العواطف والاحساسات بقيت مع ذلك ناقصة ومحددة بعض الشيء لانها كانت منقادة دائما الى وجهة معينة : هى تكبير وتوسيع دائرة شخصية هيجو نفسه ويمتاز هيجو بظاهرة غريبة كان لهـــا أكبر الأثر فى سهولة اتصاله بالطبيعة وأخذه عنها مادتها التى صاغها فى كتبه وأشعاره فحواسه دائما متفتحة متوترة على استعداد تام لاستقبال تأثيرات الطبيعة المختلفة • ويزداد هذا التوتر فى حاسة النظر خاصة • فرؤيتـه للأشياء هى رؤية صرفة لاتكاد توجد عند شاعر آخر غيره • فهيجو اذا صوب نظره الى شيء فى العالم الخـــارجى يرى فى وقت واحد • الجزء والكل ، وبمعنى آخر يرى التفاصيل والجملة • وهو عـــلاوة على ذلك شديد التأثر الى حد بعيد أمام الظلال والأضواء • ولقد ساعـد ذلك على تزويد شعره بالطباق ، ذلك العنصر الاساسى الذى نراه فى كثـــير من قصائده وأغانيه •

لم يتصل هيجو بالطبيعة الخارجية التى تلقف منهـــا كل القيم برباط آخر غير رباط الحواس • ولذلك كانت لوحاته البســـيطة عن الطبيعة ومناظرها جميلة ولكنها نادرة ندرة ظاهرة فى انتاجه • لقـــد خلق هيجو من الطبيعة حانوتا واســـعا يعرض فيه الصـــور واللوحات المختلفة • وكان عقله يجول فى أرجاء هذا الحانوت ويمتزج بهذه الصـور ويستخلص منها تارة مادة لمواضيعه وتارة أخرى أردية لالباس الأفـكار والآراء • ويرجع السبب فى ذلك الى أن نفسه لم تتأثر تأثرا مســـتمرا بالعالم الخارجى • وكذلك لأن هيجو كان اذا وصلته بعض التأثيرات من العالم الخارجى تكونت فى نفسه احساسات مختلفة حول هذه الاحساسات الى مجازات واستعارات ورموز تخضع لتصوره وادراكه الروحانى •

ولكن أى نوع من الذكاء يتمتع به فيكتور هيجو ؟ يجب أن نعترف هنا أن شاعرنا الكبير غير قادر على تخفيف أو تليين أفكاره • فهو حينما يعالج النقد نراه يطلق الكثير من الأفكار المتصقة الملتحمة المتـــداخلة بعضها فى بعض • أما اذا تصدى للموضوعات النظرية فلا بد أن يتورط

فى جملة من المتناقضات والآراء المتنافرة • فاذا تركنا طريقة الصياغة وانتقلنا الى مادة الافكار وقفنا على الحقائق الآتية : كانت أفكاره الأدبية مضطربة ثائره • أما أفكاره السياسية والفلسفية والاجتماعية أو بعبارة أخرى أفكاره الجمهورية ، واعتقاده بوجود الله وآراؤه فى الديموقراطية كانت كل هذه الافكار لا تعلو المرتبة الوسطى وهى تخلو من الجدة والطرافه ، وقد يمازجها الاضطراب والتداخل فى بعض الاحايين •

ولما كان هيجو غير قادر على التفكير الصحيح ، فقد تسربت الى نفسه ضرورة احترام التفكير واجلال المفكرين • لقد كان يصبو دائما الى الارتفاع والوصول الى قمتهم العالية ، ويتحرق شوقا الى الانضمام فى زمرتهم • أليس من واجب الشاعر أن يكون معلم الشعب وهادى الانسانية ؟ ولكن لا يجب أن نتعسف فى الحكم أو نجرى الى بعيد • فمن الصحيح أن أفكار هيجو لم تكن جديدة أو مبتدعة ، ولا رائقة أو صافية وذلك لأن هيجو من الشعراء وليس من الفلاسفة • فليس من عمله اذن أن يصب أفكاره فى قالب معجز ، بل يكفيه أن يحرك النفوس ويوقظ فيها التطلع والتشوف الى مسائل العصر الكبرى • يكفيه أن يحول الفكرة المجردة الى احساس أو عاطفة قوية فعالة ، يستطيع القارىء أن يحسها ويتأثر بها • ومن هنا جاءت قوة انتاج هيجو •• تلك القوة التى أثرت أكبر التأثير فى نفوس معاصريه • واذا كان انتاج هيجو ينقصه الافكار المجردة ، فان هذا النقص يعوض بعناصره الاخرى الفنية ، تلك العناصر التى تلقى فى نفوسنا ببعض آلام المجتمع الخاصة •

الله — الانسانية — الشر فى العالم — البؤس — الرذيلة — الواجب — التقدم — الرحمة •• هذه هى بعض الافكار الرئيسية التى لم يحددها شاعرنا أو يبرهنها • ولكنها كانت فى انتاجه كالنواة التى تتجمع حولها احساساته وعواطفه • لقد اتعبت هذه الافكار عقله وأجهدته لأنه لم يحاول تحليلها وتشريحها بل تركها على ما هى عليه ، غامضه ينبع جمالها من نفس غموضها • كانت هذه الافكار تتموج فى نفسه وتخرج لها توسلات وتراتيل حنونة كلها حركة وامتلاء وسعة •

كان فيكتور هيجو لا يفكر الا بالصور • فالفكرة تتجمع لديه فى كلمة واحدة • فهو حينما يرى شيئا يتنبه خياله فتستيقظ الفكرة التى توسدت هذا الخيال مدة طويلة وتسرع الى عقله • وهكذا يتخلص الشاعر من مضايقة العمليات الادراكية المعروفة •

نستطيع أن نقول أن هيجو يمثل الانسانية القديمة • فآراؤه وأفكاره ثائرة مضطربة تعالج ألوف المسائل المعقدة والمشاكل الدقيقة • ولكنه رغم ذلك كان غير قادر على سلخ هذه الافكار من تجريداتها الأولية القديمة فاقتربت من دائرة الخرافات والتنجيم • ان ما انتجته العصور القديمة فى الاجيال التى سبقت التاريخ كرره هيجو فى عصر « كونت Comte » ، و « داروين Darwin » • وهكذا أصبح كل احساس عنده يمتد ويستطيل ويصبح رمزا ، وكل رمز يتضخم وينتفخ ويصير خرافة • لم تكن عنده حاسية نفسية حادة أو متدربة ، ولذلك كان لا يمكنه أن

يرى الاشياء الغير قابلة للتجزئة : فالفقير الذى يقابله فى طريقه يصبح عنده هو الفقر بعينه • وقد ظهرت هذه الخاصية بوضوح فى «التأملات» ص ١١٨ •

لقد ظهرت خشونة هيجو وقوته فى كتابه Les chatiments ولكن هذه الخشونة وتلك القوة سرعان ما تتبخر أمام قوة الموضوع • بل يمكننا أن نقول أن صغائر المؤلف سرعان ما تنمحى أمام الروعة الاخاذة التى تطالعنا فى هذا الكتاب الانسانى • فالقارىء حينما يتصفح هذا السفر يخيل اليه أنه يسمع آنات قوية تطن فى أذنيه ، وتجلجل فى سمعه • يخيل اليه انه يسمع صيحات الحق ضد القوة وصرخات العدالة التى تريد أن تؤكد نفسها وتعلو على الاستعباد • يخيل اليه أن أذنه تلتقط آنات الضمير الذى جرحه الحاضر والذى يركن ويطمئن الى المستقبل •• الى الخلود • ان أعظم المقطوعات جمالا فى هذا الكتاب هى تلك التى تبعد عن الذاتية المطلقة ، وتتفشى فيها الرموز المحيرة •

أما « قصة العصور » La legende des siecles فتنبع من مصدر غير ذاتى ولكنه خرافى الى حد بعيد • ولذلك نرى فيها ذلك الجموح المعقد فى المعانى والألفاظ •

لقد تكلم المؤرخون عن شعر الحماس فى سياق كلامهم عن « قصة العصور » • ولكن يجب أن نلاحظ هنا أن شعر الحماس الوارد فى هذا الكتاب يبعد تماما عن ذلك اللون الذى صيغت به الالياذة أو الأوديسة • واذا أردنا أن نقارنه بشعر حماسى آخر فلن نجد أمامنا الا « الكوميديا المقدسة » •

هناك فكرة فلسفية وأخرى اجتماعية فى كل مقطوعة شعرية من مقطوعات هذا الكتاب • وهاتان الفكرتان هما الدعامة التى يشيد عليها الشاعر هيكل كل مقطوعة • فهو يتكلم مثلا عن تأكيد وجود الله أو العدالة أو يشرح لنا حقد الملك أو القس • ثم يتم مقطوعته باستعراض للتاريخ والانسانية ويعتنى خاصة بعصورهما الرئيسية • وهكذا نجد بين أيدينا لوحة كبيرة رائعة تشرح لنا اعتقادات الشاعر الاخلاقية • ولكن هذه الاشعار الحماسية الرمزية هى فى الواقع لون من ألوان الخرافات وعنصر الحقيقة فيها سواء أكان متخيلا أو مرئيا قديما أو معاصرا ينتظم فى النهاية فى سلك الرؤى الفخمة الوهاجة •

كان هيجو يطمع دائما الى العظمة فانطبعت تلك العظمة فى كتبه وانعكست على كل صفحة من صفحاتها • وهكذا أصبحت مادة كتبه ضخمة كبيرة ولكنها تخلو من العمق والاعجاز •

لاحظ كل من أرخ لهيجو هذه الظاهرة وعدها من نقائصه الجوهرية • ونحن اذا صرفنا النظر عن هذه النقطة رأينا هيجو فنانا عظيما يعشق الفن ويقدسه ، ويثق بانتاجه وبنفسه • هو لم يتوخ دائما المنهج السليم : بل كان يفعل ما كان يريد •

وهذه الظاهرة ، ظاهرة سيادة العظمة على العمق ، تظهر فى كل

انتاجه · لننظر مثلا الى كتابه les chatiments أو حتى الى فهرس هـذا الكتاب فسنجد عجبا · لقد أكثر هيجو من (العناوين) فى هذا الكتاب · لقد حاول وهو يعنونه ان يجعلنا نعتقد بأنه كان يسير على نظام مفهـوم فى ترتيب الموضوعات وتنسيقها · ولكننا سنلاحظ أن هـذا النظام سيهرب ويختفى ونحن نقلب صفحات هذه المجموعة الشعرية · فلن نجد فيها مانسميه (بالنقد المنهجى) للنظام الاجتماعى والسياسى للامبراطورية ولكن لنترك هذه القواعد والصيغ التى يلصقها هيـجو بكل باقة من باقات هذا الشعر كأنها (الماركة المسجلة) ولننظر الى الشعر نفسه · الشعر فى هذا الكتاب جميل الى أبعد حدود الجمال · ومما زاد فى هذا الجمـال عملية المزج ·· مزج الصيغ الشعرية الحماسية بالصـيغ القصصية ، وكذلك العناصر المباشرة بالرموز العرضية وأخيرا اختـلاف النغمات وتنوعها · كل ذلك كان من شأنه أن يبعـد السـأم والملل عن نفس القارىء ·

الى هنا نكون قد انتهينا من دراسة فيكتور هيجو ، تلك الدراسة التى استخلصناها من مؤرخيه ومن أهم كتبه الشعرية · لقد رأيناه فى كتبه : الشاعر العظيم ، والاخلاقى العظيم ، والانسانى العظيم ! رأيناه من الرجال العظام الذين وصفهم هو بقوله

« الرجال العظام هم بناة عصرهم ! »

الانزرينيه لساج

(١٦٦٨ - ١٧٤٧)

نقاط البحث

١ ـ لوحة حياته وتحليل شخصيته .
٢ ـ لساج و « جيل بلا » .

اذا كان هناك حقـا مايســمى بالعبقرية
وكانت هذه العبقرية تصيب بعض الأفراد الذين
يعيشون تحت الشمس لافى أى مكان آخر ، فمن
هؤلاء آلان لساج ٠

لوحة حياته وتحليل شخصيته :

اذا أردنا أن نلخص حياة رينيه لساج فى كلمتين اثنتين قلنا انه « يعمل ليعيش » ٠

ولد لساج فى (سارزو) وهى بلدة صغيرة فى جزيرة (ديوس) فى الثامن من شهر مايو سنة ١٦٦٨ ٠ وكان أبوه يدعى الاستاذ (كلود) ، ويعمل قاضيا ٠ أما أمه فهى السيدة (جان برينيجا) الزوجة المثالية والأم الحنون ٠

عندما بلغ الآن السن التى تؤهله لاكتساب العـلم ، أدخله أبوه كلية (فان) التى يديرها ويرأسها الاستاذ (بروشار) عضو الجمعية اليسوعيه وفى سنة ١٦٧٧ ولساج على أعتاب السنة العـاشرة من عمره لطمه القدر لطمته الاولى فقد اختطف الموت أمه فى ١١ سبتمبر من هذه السنة ٠ فى ذلك اليوم المشهود رأى أهل سارزو مشهدا مؤثرا ، هـو مشهد موكب الجنازة المهيب ، يتقدمه النعش ويتبعه الاب الوقور والابن الطفل ، وأصدقاء العائلة قاصدين بيعة تلك المدينة الصغيرة للصلاة على جثمان الام الطيبة تمهيدا لدفنه ٠ وبعد أن تمت مراسيم الدفن رجـع الطفل ـ وهو بملابس الحداد ـ الى فان ٠

ويعود القدر ـ بعد خمس سنوات ـ فيتذكر لساج الطفل الحزين ويلطمه لطمته الثانية ٠ وتتمثل هذه اللطمة القاسية فى موت الاسـتاذ كلود ، وهنا يتكرر الفصل الاول من المأساة ، فنرى لساج يذهب الى بيعة سارزو ، ولكنه فى هذه المرة يسير بمفرده وقد شخص ببصره الى الارض حتى اذا وصل أعد كل شىء ، ومهد للقاء الزوج والزوجة أو الأم والأب ، ذلك اللقاء الخالد ٠٠ فى العالم الآخر ٠

أخذت ذكريات فان الشاحبة تلاحق بطلنا ، وتأخذ بتلابيبـه ، ولا تترك له ساعة واحدة يخلو فيها الى نفسه فيشعر بالهدوء والراحة ، لقد كانت دائما تذكره بالراحلين الطيبين ، فيتلوى قلبـه بالألم الصامت ، وتطل الدموع الحبيسة من عينيه وهكذا لم يستطع العيش فى هذه البلدة الصغيرة الهادئة فتركها وفر منها الى باريس عاصمة وطنه ، كان الوالد المتوفى قد ترك لابنه الوحيد ثروة لابأس بها لتعاونه على شق طريقه فى الحياة ولكن القدر الذى ناصبه العداء حتى هذه المرحلة من حياته لم يشأ أن يترك له هذه الثروة ، ولذلك نرى مجلس الادارة المختص يحيل هـذه الثروة (لجبريل لساج) شقيق المتوفى ٠

على هذه الحال حضر لساج الى عاصمة فرنسا ، لينهل العلم والفن من جامعتها الشهيرة • ولذلك سرعان ماينكب على دراسة الحقوق والفلسفة بجد واجتهاد وبعزيمة قوية صلبة ، فى هذه المدينة الكبيرة الصاخبـــة الغامضة نفتقد لساج ولا نستطيع الا أن نتخيله : فهو لا يهتم الا بمعضلات القوانين الفرنسية وفتاويها ، والقضايا الفلسفية واصطلاحاتها • كان لساج من هؤلاء الاشخاص الحذرين الذين لايتوقعون من الحياة الخـــير الخالص بل الخير الممزوج بالشر • وكان نشط الجسم سريع الحركة له هيئة محبوبة جذابة حتى لقد راحت حوله الاشاعات فجعلته موضع اعجاب من نساء فرنسا الملحوظات كما رويت عنه غزليات كثيرة وصورته فى ثياب الفارس الجميل الذى يصول ويجول فى حلبة العشق واللهو • هذا هو ماترويه الاشاعات ، ولكننا لانعلم ــ بوجه التحقيق ــ شيئا عن تلك الحقبة من حياته الدراسية ، ومما يزيد هذه الفترة من حياته غموضا أن لساج نفسه لم يدون عن أحداثها شيئا ينير أمام الباحث طريق البحث والتقصى نعم ، لقد تكلمت الاشاعات ، وذاعت فثبتت هذه المغـــامرات فى الذاكرة ولكن هل تستمد هذه الاشاعات أصولها من الحقيقة الواقعة ؟

هذا مانجهله ، أو مالانعرفه على وجهه الصحيح لسببين : الاول أن من عادة الاشاعات التهويل ، والباس الحقيقة ثوب الخيال • والثانى أن كل من كان على شاكلة لساج ــ وهو من هؤلاء الذين لايتذكرون المــاضى واحداثه ولا يحاولون بعثه من قبره ليحدثهم بما طواه فى أحشـــائه ــ لايكتب مطلقا مايسمونه «الاعترافات» • ولهذا السبب يجب علينا الآن أن نسدل الستار على ذلك الفصل من «غرام المتنزهات العامة» لنرفعــه مرة ثانية ، عن قصة غرام جديدة •• قصة غرام جدى ، تغلغل فى نفسه واختلط بدمه ، وأثر فيه طيلة حياته •

ففى أثناء اقامته بشارع (فيوكولومبيه) حيث كان راسين ،وشابل ولافونتين يندمجون فى جماعه (بوالو) الادبية ، كان يقوم بزيارات متصلة منتظمة لجماعة من الطبقة الوسطى فى المدينة ، هى أسرة متوسطه الحال تعيش فى هذا الحى من أحياء العاصمة •

تمكنت أواصر الصداقة بين لساج ورب هذه الاسرة • وكان لساج لا يترك فرصة تمر الا ويزور الاسرة ويطيل المقام عندهم • فقد أحس أن قلبه قد شغف بمارى ابنة صديقه الجميلة المستقيمة ، ازدادت جذوة هذا الحب اشتعالا على مر الايام فى قلب العاشقين حتى وقف على أمره أهــل مارى • أما بقية فصول هذه القصة فمن السهل سردها لبساطتها وشيوعها فقد حدث فى ١٧ أغسطس سنه ١٦٩٤ أن حصل آلان على موافقة مطران باريس بشأن معافاته من اشهار زواجه من الآنسة مارى اليزابيث هوارد وهى ابنة (أندريه هوارد) أحد أبناء الطبقة الوسطى فى باريس وأمها مارى كاولوس التى تعيش مع زوجها فى (سانت بارثيليمى) • وهكذا تم الزواج فى ٢٨ سبتمبر من السنة نفسها وكانت مارى فى الثانية والعشرين من عمرها أما آلان فكان فى السابعة والعشرين وكان لساج فى هذه الآونة يزاول مهنة المحاماة ، ولكنه كان مجردا من القضايا من جهة ، ومن الموارد المادية الخارجية من جهة أخرى بسبب عمه (جابريل) •

كانت بائنة مارى لآلان هى شبابها ، وجمالها ، وفضيلتها · فقد انحدرت من أصلاب أسرة متوسطة لايزيد دخلها على مصروفاتها · ولهذا أظلمت الحيـــاة واكفهر وجهها لهذين الطفلين الفقيرين وأصبحا كشريدين مفقودين فى مملكة «البورجوازيين» بين هذا الخضم البشرى الهائل ، الذى يلبس اللباس الاسمر القاتم والذى انقرض أو كاد من محيط الحيـــــاة الفرنسية فى أيامنا هذه كان صديق هذه العائلة المحدودة العدد ، الفقيرة الموارد هو (دانشيه) زميل لساج فى الكلية · وكان دانشيه هـذا طيب القلب ، سليم السريرة رؤوف رحيم ، أكثر من زياراته للزوجين التعيسين وحاول جهده أن يخفف عنهما لوعة الحياة فكان يطيل المكث فى منزلهما يحدثهما ويحدثانه وهكذا أحباه لانه أصبح قبس النور فى حياتهماالمظلمة المدلهمة ، ولكن دانشيه كان هو الآخر محتاجا ومفتقرا للمال فاضـــطر الى قبول وظيفة استاذ فى (شارتر) وسافر وخلفهما وراءه وحيدين بين أمواج الحياة الصاخبة ·

وهنا تطالعنا فترة غموض ثانية فى حياة لساج فالمعتقد أنه ذهب مع زوجه الى (فيتريه) حيث شغل منصب السكرتير لاحد كبار الملاك ·· ولكن من الثابت أن عودته لباريس كانت سنة ١٦٩٨ ، وانه اتخذ مسكنه بالقرب من بيعة (سانت سوبليس) التى تزوج فيها ، والتى عمد بين جدرانها فى ٢٤ ابريل ابنه (جولز فرانسواز) ·

ولقد وجد لساج فى مسيو «ليون» ــ وهو قسيس طيب القلب من كنيسة (سانت مارتان دى شان) ــ معينا له وحاميا · فقد قــدم له يد المساعدة فى كثير من الاحوال ووالاه دائما بالتشجيع والنصح · وكان لهذا القسيس ــ فيما يظهر ــ بعض التأثير على أديبنا فقد جعـــله يعبر السنين ليكون قريبا منه ·

وفى «سانت ايستاش» عمد لساج ابنه الثالث (فرانسوا انطوان) وتاريخ ذلك التعميد هو ٢٣ فبراير سنة ١٧٠٠ ·

وبعد سنتين من هذا التاريخرزق لساج بابنة جميلة · وهكذا أصبح باختصار رب أسرة عليه أن يعول زوجه وأبناءه الاربعة ·

كانت كل ثروة لساج فى رأسه ، فهى سنده الوحيد لاعالة زوجه وولده ولذلك نراه يعالج الكتابة منذ العام الاول لزواجه محاولا أن يخرج من محبرته الشرف أو الربح · فابتدأ بترجمة بعض الرســائل فى بلاغة اللغة ، واستطاع أن يكون من دراساته وترجماته فى هذا الموضوع مجلدا هزيلا طبعه له صديقه القديم ، وزميله فى الكلية وانشنيه ·ولكن هــذا الكتاب لم يلفت النظر الى كاتبه وكان نصيبه الكساد فى سوقالادب فأخذ لساج يفكر فى طريقة أخرى ، ووسيلة جديدة توصله الى مايريد · وهنا يظهر الاب ليون على المسرح ويلعب دوره فى ارشاد لساج ونصحهبنجاح· فاليه وحده يرجع الفضل فى تعبيد الطريق وانارته أمام الاديب الناشىء · فنراه يحض لساج على تعلم اللغة الاسبانية حتى يكون فى مقدوره نقـل روائع الادب الاسبانى الفنيه الى اللغة الفرنسية ولقد نفذ المشروع بالفعل واستطاع لساج أن يترجم الى لغته القوميـــة بعض المقطوعات من الادب

التراجيدى الاسبانى : وأردفها بقصة واحدة ولكن النجاح لم يصادفه فى هذه المحاولة كذلك .

وهكذا استصحبه الفشل ، ولازمه كظله ، حتى سنة ١٧٠٧ . ففى هذه السنة بدأ نجمه ينير فى سماء الادب الفرنسى . فنراه يقدم قصتين هزليتين «لجماعة التمثيل الكوميدى» . الاولى وهى أكبرها حجما وعنوانها Doncesar ursin مترجمة عن الاسبانية وقد لقيت نجاحا كبيرا عند تمثيلها فى البلاط . والثانية وعنوانها Crispin rival de son maitre ألفها لساج فجاءت تحفة فريدة فى نوعها ، ولاقت نجاحا باهرا فى باريس وفى هذه السنة طبع عند (باربين) قصته العظيمة : «الشيطان الأعرج» وهى قصة ذات اطار اسبانى . ولكنها مع ذلك . وهذا هو المهم ، فرنسية فى روحها وجوهرها وأسلوبها . هذه القصة عظيمة الشأن ، جليلة القدر من جميع نواحيها فقد دفعت شيخ كتاب فرنسا وفلاسفتها «أناتول فرانس» أن يقول عنها :

«ان كل من يستطيع القراءة يجب أن يقرأ قصة لساج « الشيطان الأعرج» ففى هذا الكتاب نجد طريقة مبتكرة فى رسم الطبيعة الانسانية وعبقرية فذة فى تحليل العواطف التى تخالج نفس الكائن الحى فى كل بقعة من بقاع هذه الارض .

وانه من العلامات المبشرة بالخير أن يستقبح هذا الكتاب قدماء النقاد فهم اذا قالوا انه لايحوى شيئا جديدا وانه لايعجبهم . فهو على العكس من ذلك عند القراء ، فريد معجب عند قراءته . ولقد لاقت الطبعة الثانية من هذا الكتاب نجاحا يفوق مالاقته الطبعة الاولى ووجدت عائلة لساج بعض المال لتدبير شئونها المادية لمدة معينة . ولكن سرعان مانقص هذا المال ، فتجدد بنقصانه نشاط لساج الفكرى .

فأخرج Turcaret وهى قطعة تمثيلية رائعة ، تعالج بعض مشاكل المجتمع . أما محور التمثيلية وجوهرها فهم رجال المال الذين يهاجمهم ديدرو فى شدة وينقدهم فى قسوة بالغة . ولقد نجحت هذه التمثيلية لطرافتها وجدتها وأصبحت تقرأ فى معظم « الصالونات الادبية» ولقد أعربت السيدة «بوالون» عن رغبتها فى سماع هذه القصة ، فلبى لساج طلبها ولكنه وصل الى قصرها متأخرا ، فقابلته ببرود ، وفاهت ببعض كلمات عدها لساج جارحه . فما كان منه الا أن قال : « سيدتى لقد ضيعت ساعتين من وقتك الثمين ، وأشعر أنه من الواجب على أن أعوضهما لك .. ولذلك فلن أقرأ قصتى ، ثم وضع مخطوطات القصة فى جيبه وغادر المنزل .

رأت سنة ١٧١٥ حدثين عظيمين ، موت الملك لويس الرابع عشر ، وظهور قصة «جيل بلا» هذه الكوميديا ذات المائة فصل كما يسميها لافونتين . والتى تأخذ اطارها هى الاخرى من اسبانيا ويغذيها رجال البلاط ، وأفراد الشعب العظماء ، وبجانبهم المشعوذين والشحاذين .. كل منهم يلعب دوره بدقة ومهارة . ولكن موضوع هذه القصة وجوهرها هو «الرجل» الذى ـ فى صميمه ـ لايتغير سواء أكان فى اسبانيا أو فى

فرنسا • فهنا كهناك ، نجد مظاهر العظمة والأبهة تسدل ستارا كثيفا على البؤس والفقر •

لساج الآن في السابعة والاربعين من عمره ، وقد رأيناه يخرج ثلاث تحف أدبية خالدة : لقد حقق مايمكن أن نسميه «معجزة القصة» لقد أخرج من رأسه عالما جميلا جذابا ، صاغه صياغة فنية رائعة ، ولكن هل يكفيه هذا ؟ لا ! يجب أن يخلق عوالم أخرى ، ليستطيع هو أن يعيش مع أسرته فى العالم الارضى ، وهكذا نراه يعمل ، ويجد فى عمله •• يعمل ليل نهار لكى يخفى عن عينيه ذلك الشبح القبيح الشاحب •• شبح الفقر والعوز •

فيخرج فى سنة ١٧١٧ «رولاند العاشق» ، وفى سنة ١٧٢١ Guzhau daifarache وفى سنة ١٧٣٢ «مغامرات مسيو روبير» ولقد كتب لساج معظم هذه الكتب بعد أن تقدمت به السن ، وكانت معظمها ترجمات وتصنيفات حتى اعتقد القراء أنه قد أعطى ماعنده ، وانه عاجز بعد ذلك عن الابتكار • أما صحف النقد الادبية ، فقد أخذت تردد هذه النغمة بصيغ مختلفة أن لساج لايكتب الا ليعيش من كتاباته ، وانه ليس السيد المسيطر على قلمه •

ظهر بعدذلك حوالىسنة ١٧٣٤ L' Histoire D'estervanilegonales

وفى العام التالى Une journee despaques

وفى سنة ١٧٣٦ طبع لساج Le bachelier Desalamanque

وفى سنة ١٧٤٠ أخرج كتابه La Valise trouvee والحق به تلك الرسائل البلاغية ، التى كان قد ترجمها أيام شبابه وهو خال من التجارب وهكذا أفرغ لساج جعبته فى عمل متواصل لاتتخلله فترات من الراحة الحقيقية •

وبالرغم من أن انتاجه الاخير كان ضعيفا ، فان لساج مع ذلك كان يتمتع بشهرة أدبية يستحقها ككاتب مفكر وأديب فنان • ولقد أحبه كل من عرفه لانه كان طيب القلب رضى النفس ، وصاحب ذكاء نادر • وكانت أحاديثه الطلية تبعث الرضى واللذة فى نفس سامعها ، وكذلك كان اذا جلس كعادته فى مقهى شارع (سانت جاك) أحاطه رواد المقهى من كل ناحية • وكان بعضهم ـ لكى يتمكن من سماعه ـ يقفز الى أعلى المقاعد أو المناضد • ولكن لساج بالرغم من حب الناس له ، وتقديرهم لشأنه بقى طيلة حياته فقيرا • فنجده يعجز ، ولا يستطيع أن يجمع لابنته البائنة اللازمة لزواجها ، فتحرم من الزواج وتموت فى احدى المستشفيات • أما ابنه الثانى فقد طلق الحياة ، وزهدها واصبح كاهنا • وانضم شقيقاه الى جماعة من محترفى التمثيل الكوميدى ، ولم يقع نظر لساج عليهما أبدا ، أما أكبر أبنائه سنا فقد التحق بفرقة (الكوميدى فرانسيز) ، وأسندت اليه أدوار الخدم والفلاحين أى انه كان من الممثلين الثانويين • أو اذاأردت لغة التمثيل قلنا (الكومبارس) • ولكنه بموهبته التمثيلية وشخصيته القوية أصبح محترما موقرا ، وأعاد علاقته ثانية بوالده • ولكن حدث بعد

ذلك بقليل أن مات هذا الابن فى حفلة صيد أقيمت فى ٨ سبتمبر سنة ١٧٤٣ ، وكان فى الثامنة والاربعين من عمره • وكان موته ضربة قاسية لوالده الذى كان كبر سنه يمنعه من العمل ، وعلو نفسه يمنعه من طلب المعونة ، وكبرياؤه الشامخة تمنعه من الاستدانة • هكذا قال عنه (فوازينون) الذى عرفه معرفة جيدة •

وهكذا لم يجد لساج بدا من أن يعتكف مع زوجه لدى ابنه الكاهن فى بلده (بولونى سيرمير) •

وهاك رسالة كتبها الضابط الفارس (تريسان) لمراسل من مراسلى الصحف المجهولين ، نثبت خلاصتها هنا ، لانها تبين لنا نهاية مأساة هذا الاديب الكبير ، وتصف لنا حالته فى عهد شيخوخته •

باريس فى ٢٠ يناير سنة ١٧٨٠ •

لقد رجوتنى أن أفيدك ببعض المعلومات عن الايام الاخيرة لذلك الاديب الشهير مؤلف «جيل بلا» وكثير من التحف الفنية الاخرى ، فهاك ياسيدى كل ماأستطيع أن أخبرك به • بعد معركة «فونتينوى» ، فى أواخر سنة ١٧٤٥ لم يعين الملك أحدا للخدمة تحت أمرة المارشال «ديشيليو» فأوقفتنى الحوادث والنظام الجديد فى «بولونى سيرمير» فلما عرفت أن مسيو لساج — وكان آنذاك فى الثمانين من عمره — يعيش مع زوجه التى تقربه فى السن فى « بولونى » جعلت واجبى الاول الذهاب لزيارتهما لكى أقف بنفسى على حالتهما الراهنة •

وجدتهما عند ابنهما ، وهو كاهن فى كاتدرائية بولونى • كان ذلك الابن لايدخر وسعا فى خدمة أبويه ،وتحسين أيامهما الاخيرة ، ولم يكن لهذه الاسرة من موارد غير المورد المتوسط الذى يتقاضاه الابن نظير أعماله الدينية ، وبعد ذلك يتكلم صاحب هذه الرسالة عن الابن القسيس •• وكيف انه كان محبوبا من رؤسائه واخوانه فى البيعة • مما ليس له كبير اهمية لموضوعنا • ثم يستطرد واصفا حياة لساج اليومية فيقول :

انه كان يستيقظ مع شروق الشمس ، ويمضى بعض الوقت فى النزهة ، والتريض ، ثم يلقى بنفسه على مقعد طويل وينام نوما عميقا لايحاول أى شخص أن يوقظه منه •

ويمضى صاحب الرسالة فيشير الى مرض ألم بلساج ويقول :

انه أصبح فى أواخر أيامه ثقيل السمع ، قليل الحركة •

مات لساج فى ١٧ نوفمبر سنة ١٧٤٧ بعد حياة كلها عمل شاق مضن ، وانتاج مستمر متواصل •• مضى بريئا كروحه ، جميلا وبسيطا كعبقريته ، وصلبا كالحاجة نفسها التى ناضلها طوال حياته ، ولكنه لم يستطع قهرها والتغلب عليها •

لساج و (جيل بلا) :

لقد عاش لساج ــ كما سبق رييننا ــ طيلة حياته ، رفيق الفقر والبؤس ، وحليف الظلمة الباردة . عاش بين أحضان الفاقة التي ضمته الى صدرها فى شدة وقوة ، كأنها العاشق المتيم ، والحبيب المتفانى فى حبه ! ولهذا سحقت أطماعه وآماله فى المستقبل ، تحت ضربات الدهر المتواليات . وتعذر على المؤرخ الأدبى أن يشبهه برجال الادب فى القرن الثامن عشر . الذين كانوا دائما يتحرقون شوقا ، وتثور الدنيا بأسرها فى قماقم شخصياتهم . ولهذا كره لساج عقول معاصريه ، تلك العقول التى يستبعدها المنطق ، وتخضع خضوعا أعمى للنقد . ولا يترك فرصة مواتيه الا ويهاجم فيها فولتير واضرابه مهاجمة شديدة قوية تخدش نفوسهم ، وتستفز عقولهم .

لقد خلا لساج مما نسميه « الذوق الفلسفى » ولذلك لم يقم كبير وزن للدراسات الدينية ، وعلوم الاجتماع . فهو يعالج بهدوء ولين تلك الشخصيات والطبقات التى يدرسها معظم أدباء عصره وفلاسفته على أنها من رذائل النظام الاجتماعى ومفاسده : وهو بهذا يعنى بالاخلاق فى ذاتها ولا يعنى بعلم اصلاح الناس . ورينيه لايؤمن بالعقل ذلك الايمان الشديد الذى يرتفع الى مرتبة التقديس ويعتقد أنه لايتمتع بالقوة التى تسيطر على التجربة ، وهو اذ لم يكن ممن يعنى بأحوال النفس والروح بعمق ودقة فهو على الأقل الملاحظ المدقق للتيارات الحقيقية التى تخضع لها الحياة الاخلاقية . وهو ــ من هذه الناحية ــ يمكن أن يوضع بين عباقرة القرن السابع عشر ، ويترك مكانه شاغرا فى القرن الثامن عشر . وكان لساج يؤمن كذلك بقوة «الغريزة الفنية» وتسلطها على المفكر الاديب ، فهولايطمع فى أكثر من التعبير عما يرى ، والترجمة عما يشاهد فى الحياة الواقعية . ولذلك نرى موهبته فى «المناظرات الادبية» فقيرة هزيلة ، لان عقله الهادىء يكره التهويل ، ويبغض الدعاية .

لم يكن لساج ابن عصره فى كل شىء ، فالمواضيع التى كان يختارها والقوالب التى كان يفرغ فيها أفكاره ، والمنابع التى كان يستقى منهسا انتاجه . لم تكن وليدة العصر الذى عاش فيه ، وانتج للناس . لقد أدار لساج ظهره لعصره ــ الذى كانت قبلته هى انجلترا ــ وولى وجهه شطر اسبانيا . وهو بهذا يبعد تمام البعد عن اخوانه أنصار المذهب «الكلاسيكى» لقد لاحظ مؤرخو الادب الفرنسى طوال عصر الملك لويس الرابع عشر ان كثيرا من الادباء قد شغفوا بتقليد وترجمة روائع الادب الاسبانى . ولكن بالرغم من الجهود التى بذلها هؤلاء الادباء فان الحقيقة الواقعية انه لم يظهر فى المدة المحصورة بين سنتى ١٦٦٠ ، ١٧٠٧ كتاب واحد له قيمته وأثره . والسبب فى ذلك يرجع الى «الفن الكلاسيكى» الذى طرح تلك القوالب الاسبانية الى أدنى درجات الفن الادبى . وبقيت الحال هكذا حتى ظهر لساج . فرأى فى الادب الاسبانى منبعا لايفنى ولا ينضب يمده بالمادة الحية والعناصر القوية الغنية ، من مغامرات وأحداث ووجوه شخصيات ، وعادات وأخلاق . ولقد ساعده ذلك على سرعة التاليف ووفرة الانتاج . ومن ناحية أخرى كان من حسن طابع رينيه أن اكتشف

هذا النبع الفياض ، لانه كان السبب الاول فى شهرته وذيوع اسمه لانه قذف فى تيار الحياة الادبية لشىء جديد له قيمته ، وله نتائجه ! فقبل لساج ، كان الادب الاسبانى لايعالجه الا جماعة من الادباء المرتزقين تنقصهم الموهبة الادبية والذوق الفنى فلما جاء لساج اقتحم ذلك الميدان وهومتسلح بالحرية والكرامة ، ومزود بالموهبة والعبقرية ولكنه رغم ذلك بعد بعض الشىء عن (الفن) لان حياته خاضعة تمام الخضوع للمطالب المادية الضرورية بمعنى أن معظم انتاجه الادبى قد خضع لمطالبه المادية ، أو بعبارة اخرى يمكننا أن نقول أن الحاجة الى المال هى التى كانت تسيطر على انتاجه الفكرى . ولهذا كانت معظم كتبه تخرج للناس فى سرعة عجيبة منقولة مباشرة عن (المسودة) التى كانت فى حاجة الى التنقيح والتهذيب، والحذف فى موضع والأطناب فى آخر ، ولهذا السبب أيضا كانت أجزاء كتبه تتكدس فيها «المادة الادبية» تكدسا وهى (محشوة) تكاد تغص بما فيها ، حتى ان كل ورقة من هذه الاجزاء كانت تحوى «عالما مبتدعا مخلوقا» لقد كانت شهوة الكتابة ، وتكديس الاجزاء بعضها فوق بعض تتملكه وتفرض نفسها عليه فى قوة وعنف ، ولذلك تعذر عليه (تليين) أفكاره وكثر التكرار فى معظم كتبه . كان من جراء تلك الطريقة التى انتهجها لساج وسار بمقتضاها فى الكتابة والتأليف .. طريقة الانجاز السريع . والانتاج المستمر ان خلت معظم القصص التى دبجها قلمه من العناصرالتى تكفل لها طول الحياة أو الخلود .

يقول جوستاف لانسون : اذا سلطنا أشعة النقد الادبى الصحيح على محصوله الوافر العريض رأينا بعضه يحترق ويبقى منه الرماد الذى يسهل على الرياح أن تذروه .. ورأينا بعضه الآخر ينير ويشع ، ويضىء ولكنه لايخلو هو الآخر من النقائص والعيوب ، كقصة « الشيطان الاعرج» وقصة «جيل بلا» .

أما قصة «الشيطان الاعرج» فقد أخذ اطارها وعنوانها من الاسبانية ولكن مادتها وحوادثها مبتدعة مخلوقة .. فاضت من نفس لساج وعقله لان هذه القصة قد كبرت — على يدى لساج — واتسعت جوانبها وحوت فى جوفها الكثير من الاخبار الطريفة والصور الغريبة . ولذلك أذاقته هذه القصة طعم النجاح لاول مرة فى حياته .. النجاح الذى يستحقه لساج .

لقد تحرك خيال لساج ، فأنتج لنا من الشخصيات ما يمكن أن نعده تكرارا لشخصيات «لابروير» فهويعرض أمام أعيننا مركبا كبيرا زاخرا من الشخصيات الحقيقية الحية الغريبة أو المكروهة الشنيعة . واذا كان عمله هذا لايضيف الشىء الكثير الى انتاج المشتغلين بعلم الاخلاق فى العصرالذى سبق عصر لساج ، والذين أطنبوا فى تحليل الرذائل والشهوات التى تصادف الرجل فى حياته فان قيمة عمله الحقيقية تأتى من طريقة عرضه لها فنحن نجدها عنده طبيعية قوية و مسلية فهذه الرذائل والشهوات يلبسها لساج لبوسها الحقيقى المحير ، وبهذا تكون قادرة على اشعال النفوس الجامدة ، وتحريك العواطف الخامدة لانه حللها وشرحها على ضوء مفعولها ونتائجها .وهذه هى خاصية لساج الاولى المهمة . ونحن اذا قارنا شخصيات « لابروير » بشخصيات لساج . وجدنا الاول أكثر تعمقا فى التحليل ولذلك وصل الى نتائج غريبة نوعا ما لم يصل اليها لساج .

اما قصة «جيل بلا» فتتماثل مع قصة «الشيطان الاعرج» ولاتختلف عنها الا فى تحديد وتخطيط لوحاتها وصورها ٠

لقد خلق «جيل بلا» مسألة عويصة شغلت أذهان الادباء ـ لا فى فرنسا وحدها بل فى أوربا كلها ـ أكثر من قرن وهذه المسألة هى : هل نقل لساج كتابه «جيل بلا» عن أصل اسبانى ، أم لا ؟ أما فولتير فيقول ان هذه القصة منقولة ، أو مترجمة عن الاسبانية ٠ والظاهر أن مهاجمته لساج وقصته بقوله هذا ، لم يكن نتيجة لسوء النيـة ، بل لانه اعتقـد ماقال ٠ والآن يحق لنا أن نسأل : اذا كان لساج قد نقل قصته عن أصل اسبانى فأين هو هذا الاصل ؟ الواقع أن أحدا لم يظهر الاصل الاسبانى المزعوم ، وذلك لسبب بسيط وهو أن هذا الاصل لم يكن له وجود فى يوم من الايام ، هذه هى النتيجة الاخيرة التى وصل اليها مؤرخو الادب الفرنسى وهى نتيجة تحل «مسألة» جيل بلا وتقضى عليها من أساسها ٠

لقد وصل المؤرخون الى هذه النتيجة ٠ بعد ابحاث طويلة أوصلتهم الى المراجع الحقيقية التى استوحاها لساج ، واستمد منها بعض عناصر قصته ٠ فالهيكل الاول لفكرة قصته ، والمقدمة والاطار الذى حشد فيه أفكاره ، وبعض المغامرات والاحداث التى تقص بها القصة قد استوحاها لساج من قصص اسبانية مثل : Marcos obregon estebanillo gonzalez . . . الخ ! ومن التمثيليات الهزلية ، وكل تلك الثروة الزاخرة للفن القصصى الاسبانى (الكوميدى والدرامتيكى) ٠ وكذلك «رحـــلة مدام دولنوى» ، والابحاث التى كتبت عن اسبانيا مثل «الابحاث التاريخية ، والابحاث الخاصه بالانساب» و «الحاله الحاضرة لاسبانيا» لفايراك ثم المذكرات السياسية والرسائل الخاصة بحـــكم فيليب الثالث وفيليب الرابع ، والخرائط الجغرافية الخ ٠٠ فى كل هذه المراجع نجد الشرح لكل ما وجد خاصا باسبانيا وأهلها وأدبها : من دراســة طوبوغرافية (الفن الخاص بتجسيم البلدان) ٠ وحقائق تاريخية ، ومعرفة بالاخلاق والعادات فى قصة «جيل بلا» ٠

والآن يحق لنا أن نتساءل : لماذ أصبح كتاب «جيل بلا» من القطع الادبية الفنية التى تدخل فى دائرة الادب ، الذى نسميه بالادب العـالمى بينما بقيت القصص الاخرى التى أشرنا اليها مثل «ماركوس أوبريجون» و«جوزمان دالفارش» وغيرهما منطبعة بالطـــابع الاقليمى ٠٠ أى بقيت اسبانية فقط ؟ الجواب بسيط ، فلساج قد ادخل فى كتابه «جيل بلا» العنصر الانسانى بجانب العنصر الفرنسى ٠ ولهذا يمكن القول أن أحسن مافى هذا الكتاب قد نبع من عقل لساج وقلبه ٠٠ فهو ملكه الشرعى الذى لاينازعه فيه أحد ٠

ولكن قصة «جيل بلا» لم تخل من عناصر تدخل على قلب القارىء الملل والضجر وأخرى تنفر ذوقه ، وتثقل على سمعه ٠ ومرجع تلك العناصر هى القصص الاسبانية التى تأثر بها لساج وأخذ عنها الكثير من حوادثها فهذه القصص تمتاز بغرابة الاحداث وخشونة وقباحة عواطف ابطالهـــا وأخلاقهم ٠ والذوق الذى يميل الى الحشو والاطناب الممل ، والهجو المقذع

والفكاهات السمجة • من هنا تسربت لقصة لساج تلك الاحداث الصلفة عن اللصوص وقطاع الطرق ، والمتشردين والمشعوذين ، وشرح أعمالهم من احتيال ونصب باطناب واسهاب • أما كل الاجزاء الاخـــرى من هـــذه القصة ، التى يجب أن يقف عنـــدها المرء ويطيل الوقوف ليمتـــع عقله وذوقه بفنها الرائع من : هجو لين ، وفكاهات سمجة ، وتصوير وتحليل رائع للاخلاق والعادات•• كل هذه الاجراءات يجب أن يبحث عن منبعها•• يجب أن يبحث عنها فى الادب الفرنسى ، والمجتمع الفرنسى ، فمثـــلا تحليلاته الاخلاقية لرجال المال ، يمكن العثور على شبيهها بسهولة فى الحياة الفرنسية• وذلك لان لساج كان ينظر ـ وهو يرسم معظم هذه الشخصيات ـ الى لوحة المجتمع الفرنسى وحياة من يلعبون على مسرحه •

ظهر أن الجزء الاول من قصة «جيل بلا» سنة ١٧١٥ ، وقد كتبه لساج فى خريف حكم الملك لويس الرابع عشر • وهو يصف حياة البطل الخاصة • فنراه يترك طفولته ليواجه الحياة مسلحا بقليل من العلم الذى يفتقر الى تجارب الحياة الحية • هو ساذج صفى القلب ، وهو مختال فخور لانه شاب قد ركب الغرور رأسه ، وهو حديث العهد بالحرية ، ولذلك نراه مخمورا بها لايكاد يفيق • فلننتظر أن الحياة سوف تشكل هذا الأبله الذى يسير بقليل من وحى الغريزة ، وكثير من عاطفة الجبن والخوف ، ذلك الأبله الذى يتخلى عن الفرصة حين تواتيه •• ذلك الذى يريد أن يصبح غنيا موسرا من غير أن يبذل شيئا ، أو يجازف بشىء لانه يخشى السـجن والفضيحة •

فى وسط هذه الضجه العجيبة الغريبة ، التى قذفه القدر اليها •• نراه يتعلم لاول مرة أن «جيل بلا» لايكاد يذكر أو يميز عن مخلوقات الله وانه ليس من واجب العالم الاول أن يعجب بجيل بلا ! نجده يتعـلم أن الحياة ماهى الا شرك نقع فيه بارادتنا ومعرفتنا • وأخيرا نرى تلك الصحبة العجيبة الغريبة تعلمه أن يحذر الغير ويحذر نفسه كذلك !!

ثم ينتقل الى مرحلة جديدة من مراحل حياته الطويلة العديدة فلقد جعلته الفرصة الحسنة ـ التى لم يفكر فيها أو يتأمل ـ يسيطر على بيت أحد الأثرياء • فلقد أحبه أهل هذا البيت جميعا ، وجعلوه يشرف عـلى أحوالهم وشئونهم ، وهكذا عاش فى رغد من العيش ، وكان فى استطاعته أن يصبح غنيا من غير أن يسرق ويموت شريفا •

ولكن فى سنة ١٧٢٤ ظهر الجزء الثالث فقذف «بجيل بلا» بعيدا عن منزل «دون الفونس» فى مغامرات جديدة مشوقة وفى عالم أرقى وأسمى من عالمه السابق •

هنا يصبح « جيل بلا » نديم الدوق « دى ليوم » وبهذا يستطيع القارىء أن يدخل معه الى البلاط من الباب الضيق ، ويجتاز فى صحبته الدهاليز والطرقات الخفية ، ويرى معـــه الكثير من عجائب البـــلاط ومتناقضاته • يرى تلك الآلات التى توجت الاحترام لسلطتها وجبروتها والتى يسمونها الوزراء ورجال الادارة والحكومة ، ويقف على ما يتفشى فى نفوسهم من عواطف شريرة وشهوات خطرة •

ولساج اذ يصف بلاط الدوق «دي ليوم» يعطي للقاريء صـــورة صحيحة واضحة عن البلاط الفرنسي في عهد لويس الرابع عشر ٠ فهـو يتحدث عن الحالة الداخلية في فرنسا ، وعن الاحداث التي توالت في المدة المحصورة بين سنتي ١٧١٤ ، ١٧٢٥ ٠ ماذا حدث في هذه الحقبة الزمنية هل وضع لساج يده على وثائق مجهولة ؟ لا ٠ ان ماحدث بالفعل هو أن الحكومة سارت الى هدفها بثيابها المهلهلة ، وفي طريقها الوعر الشائن ، وقد حجبت شخصية لويس الرابع وراء أستار كثيفة ٠ رأى لساج أن الأب ديبوا هو الذي يقوم بشئون الحكم ، بينما كان ساعد فيليب الخامس الأيمن هو «البيروني» ثم ابتعدت هذه المساخر وأخذ «فلوري» يسكن ويهدأ الجو ويضع المسائل الهامةفي قوالب شريفة ويعالجها بوسائل سليمة فاذا فشل فسلاحه هو الصمت التام ٠

ثم طبع لساج سنة ١٧٣٥ نهاية قصته ٠ وفي هذا الجزء يعرض على القاريء مرة ثانية حياة «جيل بلا» السياسية يعرض حياته هذه وهو في صحبة «اوليفاريس» كما سبق وعرضها مع الدوق «دي ليوم» ولـكننـا نرى أن كل شيء قد تغير في هذا التكرار : فالوزير رجل شريف ، والنديم رجل شريف ، وكل فرد يبذل قصارى جهده لتحقيق أغراض الدولةوالملك ونرى كذلك أن حب الذات ، والأنانية قد تقلصا الى الحد الأدنى ٠٠ ذلك الحد الذي تتطلبه حقيقة الحياة ٠ وعلى هذا يمكن القول أن المؤلف «لساج» قد استطاع أن يكون فيخلال اثنتى عشرة سنة فكرة أرقى عن الرجلالحاكم

وقد أخذ لساج طريقة بناء القصة عن السيدة «دي سكوديري» التي كانت مولعة بتوسيع الموضوع وتشريحه حتى يمكن نشره في عشرة أجزاء او يزيد ٠ وكان من نتيجة استخدامه لهذه الطريقة أن كثرت الشخصيات في قصته ، وتعددت مغامراتهم وأحداثهم فلا تمر على القاريء مدة قصيرة الا وتطالعه فيها شخصية جديدة تقص عليه قصتها ٠ بل لقد اضطرلساج أن يلقى ببطلة «جيل بلا» في غمار كثير من المغامرات لا لشيء الا ليعطي فرصة لشخصية ما لتظهر وتروى لنا حوادث حياتها ، ولذلك أصبح من السهل على المرء أن يحذف أكثر هذه الاقاصيص من غير أن يضر بجوهر القصة ٠ ولكن هناك ــ من ناحية أخرى ــ الكثير من الحوادث التي كان «جيل بلا» هو بطلها الحقيقي ٠

والآن لنتحدث قليلا عن شخصية «جيل بلا» : هو ذلك الطفل الذي يمكن أن يكون ــ بشيء من الجهد والصعوبة ــ بطلا لقصة أو أقصوصـــة هو طفل طيب القلب ، خلا قلبه من المكر والخبث ، وخلت حياته من الليونة والحماسه ٠ ولكنه شخصية محبوبة قاهرة ، رغم خلوها من العمق ، هو اذا تعثر وسقط ، وجد من نفسه القوة التي تساعـــــده على النهوض والنسيان ٠ وهو قادر على تعزية نفسه في نواكب الدهر ونوازل الزمان انه يشخص ببصره دائما الى المستقبل ، ولا يلتفت أبدا الى الماضي ٠ دائما في حركة مستمرة ، لايسترسل مطلقا في أحلامه وتأملاته ٠ أن ذلك الانسان الذي هذبته التجارب ، وصقله مسن الحياة بعد أن كان يختال اختيال الطفلالأبله الساذج٠٠ هذه هي شخصية «جيل بلا» ٠٠الشخصية الانسانية ٠

شخصية «جيل بلا» شخصية محشوة ان صح هذا التعبير ، فقد خلقها لساج على هذا الاتساع لكى تبلغ كل الأحداث والمغامرات ، وعلى هذه المرونة لكى تتسع لهذا التنوع والتغيير ، « فجيل بلا» لا يستقر ولا يهدأ ، فبمجرد فراغه من مغامرة سعيدة أو بئيسة ، نرى المؤلف يقذف به الى مغامرة جديدة • وهكذا تتعثر هذه الشخصية فى وسط هذا الخضم الهائل من الاحداث والافعال وكان من جراء ذلك أن فقد «جيل بلا» مانسميه «تغير أحوال الشخصية» بمعناه الدقيق • لانه فى الحقيقة لايملك غير الاسم فقط ، أما فيما عدا ذلك فهو جميع الناس ، فالقارىء لا يستطيع أن يقول أن الرجل الذى عاش فى الكهف مع اللصوص ، هو نفس الرجل الذى عاش فى قصر «أوليفاريس» لانه لاتوجد هناك أى رابطة نفسية تربط تسلسل هذه الحلقة من المغامرات •

ان أعظم أعمال لساج هى طريقة رسمه وتصويره لاخلاق شخصياته وعاداتهم ، فقصته هى معرض عظيم من الصور الرائعة • • الحقيقية •

وان جدته فى هذا الامر هى ملاحظته كل العوامل الداخلية التى توحى للرجل أعماله وأقواله ثم اشاراته وتعابير وجهه ، وكذلك دقة وصفه التى تكاد تبلغ حد التجسيم للملابس والأثاث والمنازل والطعام الخ • • فهو من هذه الناحية واقعى بل من أكبر الواقعيين وأدقهم •

علم لساج جوهر الحياة وحقيقتها ولذلك لم يكن يتالم حينما يرى الساقطات واللصوص لانه يعلم أن بينهم الشرفاء والفضلاء • علم لساج أن الفائدة واللذة تقتسمان العالم ، ولا تتركان مكانا «للفضيلة الخالية من الغرض» وهو يعلم كذلك حقيقة مايسمونه بالرجل الصالح الشريف ، ان الرجل الصالح الشريف لايمكن أن يكون أرقى من «جيل بلا» لان «جيل بلا» هو النموذج الصحيح الذى يمثل هذا النوع من الرجال فى الحياة الواقعية هذا الرجل الذى يلعب دوره على مسرح الحياة ، كما لعب «جيل بلا» دوره بين دفتى كتاب •

وأخيرا بقيت كلمة صغيرة نقولها عن أسلوب لساج • كان لساج يتحرى في أسلوبه البساطة الطبيعية ، ويسير معها الى أقصى حدودها حتى تسلمه فى بعض الأحايين الى الاهمال • وكان أسلوبه يجمع فى وقت واحد بين القوة والضعف ، بين الهدوء والشدة ، بين اللين والسخرية اللاذعة المفاجئة • وهو من هذه الناحية يشبه الاسلوب (الدراماتيكى) • وأسلوبه هذا لا يخلو من القدح والهجو ، ولكنه بالاختصار الاسلوب المعبر عن الحياة •

ولساج فى القرن الثامن عشر خير وريث لموليير ولابروير واضرابهما من الكتاب الذين هاجموا فى تمثيلياتهم العادات القبيحة والاخلاق الذميمة التى تحلى بها أهل عصرهم ، ولكنه يفوقهم جميعا فى أنه عرضها فى شدتها وقوتها • • عرضها كما وجدها فى الحياة •

فرانسوا رينيه دى شاتوبريان

(١٧٦٨ - ١٨٤٨)

عناصر البحث

- طفولة شاتوبريان •
- شخصيته •
- عبقرية المسيحية •
- أتالا ــ رينيه ــ الشهداء •
- لوحات شاتوبريان الطبيعية •
- نفوذه !

كل فرد قرأ فى أساطير الاغريق الأقدمين وتاريخهم ، عرف المنزلة السامية والمكانة الممتازة، التى يتمتع بها أنصاف الآلهة عندهم ، هذه منزلة شاتوبريان ومكانته فى عالم الأدب ودنيا الفن ٠ فلقد وصفه فيلسوف فرنسا الكبير «أناتول فرانس» بقوله : ان شاتوبريان من أنصاف آلهة الأدب فى فى القرن التاسع عشر ٠

طفولة شاتوبريان :

ولد فرانسوا رينيه دى شاتوبريان فى ٤ سبتمبر سنة ١٧٦٨ فى سانت مالو بشارع اليهود المظلم الساكن ، وقد طغى هدير الموج على صرخاته الاولى ، وكان صوت الطبل أول معكر لنومه !

ولد لأبويه قبله تسعة أطفال وشاتوبريان يضرب بأعراقه الى عائلة عريقة انحدرت من بريتانى ٠ نشأ فارسنا الصغير على أرصفة سانت مالو وقد تلقى دروسه الأولى فى كليات دول ، دى دينان ٠ وقد حددت عائلته مستقبله فأرادته أن يكون بحارا ، ولكنه صمم أن يكون (قسيسا) حلت أجازته السنوية فتخلص من قيود الدراسة ورحل الى قصر « كومبورج » الحزين ٠

وهناك فى ضاحية «كومبورج» عاش شاتوبريان بين حقول القمح التى تنعقد فى سمائها الغيوم الداكنة وذرات الغبار الشاحب ، وعاش مع والده ٠٠ ذلك الكهل الذى طلق حياة المغامرة والمتاعب ٠ وبلده«كومبورج» هذه التى انفق فيها شاتوبريان طفولته الاولى ذات تربة قاحلة فقيرة ٠٠ وهو مربد مغبر لا يصفو ولا يعتدل ٠

لم يجد شاتوبريان فى بيت الأمومة مايرضيه ،فتركه وعاش مع احدى أخواته البنات ، وهى طفلة هزيلة ضعيفة قد فقدت حنان الام مثله وكأن القدر شاء أن يعوضهما بعض ما فقداه من حنان ، فأرسل اليهما «لافنلوف» الخادمة العجوز فوجدا فى قلبها الطيب الساذج ألوانا شتى من العواطف النبيلة لم يذوقاها من أمهما ٠

كان رأس رينيه الجميل يعمل فى الوحدة : يجمع الصور ، ويتمتع بالاحلام ، ويحصل الرياضيات واللاتينى فى الكلية القائمة فى منطقته الريفية يتمتع بعبقرية فطرية ، وذاكرة قوية ، وارادة حديدية توجهه الى أهدافه المثالية ٠٠ الى المجد ! عاد شاتوبريان الى «كوم بورج» فطالعته هناك مناظر غابات صامتة وأرض قاحلة مقفرة ٠ كان القصر نفسه رمزا للعزلة والوحدة ٠ وكان شاتوبريان يعود اليه فى المساء بعد أن يكون قد انتهى من استراضاته وعدوه فى الريف الغامض ، فيجلس فى بهو القصر الفسيح الذى تنيره بعض الاضواء الشاحبة القاتمة مع والده ولا ينبس

ببنت شفة . وبعد مدة ينهض ويذهب لينام وليواجه – وحده – أشباح الليل المخيفة .

لم يكن شاتوبريان سعيدا فى هذه الحقبة من حياته ، فبعد عودته من الكلية الى كومبورج انتابته الهواجس والبلابل ، وشعر بحزن قاتل حتى أنه حاول الانتحار فقد حدث وهو يستريض فى الغـابة أن أخرج بندقية الصيد ووضعها على جبهته ولكنه أحجم عن اطلاق الرصاص ، لم يكن احجام شاتوبريان عن دافع دينى لا ، فقد كان قسطه من العقيـدة ضئيلا ، لم يتغلغل فى أعراقه ولم يتحد ويمتزج بدمائه فيستطيع أن يملى عليه أفعاله أو يؤثر فى قراراته . لقد سمع شاعرنا فى اللحظة الحاسمة – كما يقول أناتول فرانس – صوت القدر .. «يجب أن يعيش رينيه».

كان عزاء شاتوبريان فى وحدته الباردة هذه هو أخته « لوسـيل» فقد كانت مثله فى الطبع : عصبية المزاج حالمة محلقة فى عوالم أخرى من الخيال . ثم القراءة .. فشاتوبريان يحمل معه الكتاب دائما يحمله وهو ملقى على بساط الحشائش فى الغابة ، ويحمله وهو فى قاربه الصـغير يقطع به صفحة الماء الهادئة الساكنة .

وهكذا تكون فى هذا الجو الذى يتنفس فيه هذا الاب الصامت وفى هذه الحياة الفارغة الجامدة المظلمة التى لاينيرها الا حبه لاخته الحالمة وكتابه العزيز . .تكون شاتوبريان العظيم الذى أدهش العالم .. شاتوبريان الذى كان يعجز عن الاتيان بعمل محـدود ، ذلك الذى كان يبحث عن الحقيقة ليزيل عنها أستار الخرافة والوهم ، والذى كان يتجنب التقعر والتعمق وكثرة التحليل ، ذلك الذى لم يطالب الطبيعة الا باظهار حقيقتها ونكشفها له خاليه من كل زيف حتى يستطيع أن يعبر عنها تعبيرا صحيحا سليما . كان شاتوبريان فى مطالعاته لايبحث عن زاد من الآراء والفـكر لتوسيع مداركه . وذلك لانه لايريد أن تتأثر أحكامه بأى مؤثر خارجى . بل كان يبحث عن موجه لاحلامه فى الموضوعات العاطفية وفى مثاليـات الصور . فنراه يضع فكرته عن المرأة بعد مطالعاته الادبية ومشاهـداته الخاصة فى الحياة فيقول : «المرأة هى شبح الحب» ثم يحـاول أن يبرز فكرته هذه فى كل ما يكتب .

وأخيرا حان الوقت الذى يجب عليه فيه أن يحدد مستقبله ، فالحياة عمل ، لايمكن تجاهل هذه الحقيقة . فلقد بلغ رينيه الآن مبلغ الرجـال ويجب أن يعمل ليعيش . كانت التقاليد القديمة لعائلته تفرض عليـه ، الانخراط فى سلك البحرية كبحار عادى . وافق شاتوبريان فى أول الامر ثم ثارت نفسه على هذه التقاليد البالية وغادر بلدته الى العاصمة باريس ليبحث فيها عن الثروة والحكمة والمجد .

ولكن مدينة فرساى – حيث البلاط الملكى – استهوته فاضمر أمرا .. استطاع شاتوبريان بلباقته أن يندمج فى رجال البلاط ، ولـكنه أظهر خشونة وقسوة فى معاملاته مع العظماء حتى أنه اختفى فجأة من «فرساى» عقب حفلة صيد أقامها الملك وكان شاتوبريان بين المدعوين من رجالهـا وبعد ثلاث سنوات من مغادرته فرساى أى سنة ١٧٩٠ وصله شىء جعـل

قلبه يخفق بشدة وعنف • كان هذا الشيء أرجوزة غرامية من نظمـــه وممهورة بامضائه • •

وهكذا رفعت الستار عن أولى مغامرات الشباب فى حياة شاتوبريان الغرامية • يقول الشاعر الشاب فى أرجوزته :

أدخل وقد أحاطنى ظلام القبور •

وظلى وحيد هادىء •

فى الغابة باحثا عن الراحة •

***

سيموت اسمى بعد هذه الاقامة الطويلة بلا مجد

ولكنه سيعيش طويلا تحت السماء التى تظلل الغدران •

ولكن جيلا بعد جيل سيستمع الرعاة •

وهم يرعون ابلهم الى قصتى القصيرة •

سوف يقولون «لقد ولد صديقنا فى هذا المهد

وبدأ حياته فى ظل أشجار (الصفصاف) هذه •

لقد مر وهو ناعس بالقرب من هذا الماء •

وفى هذا الوادى تحت الازهار ثوى فى لحده •

***

فى سنة ١٧٨٧ تزوج الأخ الأكبر لشاتوبريان من بنت مسيو «دى ماليشرب» • وكان ماليشرب هذا يندمج فى الوسط الادبى الفلسفى فى عصره ،ويخالط جهابذة رجال الفكر والادب والفن فى بلده • ولقد اتصل به شاتوبريان وأعجب به كثيرا ، ولكنه لم يأخذ عنه : حرية التفكير •• والتواضع •• والبساطة ، وهى تلك الخلال التى اكتسبها «ماليشرب» من عباقرة وفلاسفة عصره•• تلك الخلال الطبيعية السليمةالتى توفرالسعادة للرجال جميعهم •

كان هذا الرجل نسيج وحده ، هو يحب العـدل ويخضع لسـلطان العلوم ويفكر كرينال وديدرو ، ويعتقد مثلهما أن الرجل لايقدر فىالمجتمع الا بأعماله واصلاحاته• وكان يحب السفر والرحلات ويقدر فوائدالترحال ومن هنا كان له بعض التأثير على مستقبل شاتوبريان • قام برحلات كثيرة فى أيام شبابه • ففى سنة ١٧٧٦ أرسل فى مهمة رسمية حكومية مـع «ترجو» فجابا أنحاء فرنسا وهولندا وسويسرا على الاقدام متخذا كلمة جان جاك روسو شعارا لهما : «ان السفر على الاقدام هو نفس الطريقة التى كان يتبعها «طاليس ، أفلاطون ، بيتاغور» وانا لايمكننى أن أتصور كيف يستطيع الفيلسوف أن يستفيد من رحلته اذا قطعها بطريقة أخرى •

كانت هذه طريقة «مالشرب» فى السفر •• السير على الاقدام ، فلما تقدمت به السن حط رحاله فى فرنسا لايغادرها ، كان يجلس على كرسيه

المريح ويرسل فكره وخياله في رحلات بعيدة • وكان يتبع على الخارطة طريقة سير السفن التي خرجت للاستكشاف مثل دريك وبوجنفيل ولابيروس ولقد علم أن لابيروس قد وصلت خليج بوتاني سنة ١٧٨٨ ثم انقطعت أخبارها • وان دانتر كاستو أعقبتها للبحث عنها وكان الشعب يترقب بقلق أخبار هذه الحملات الاستكشافية ولقد كتب في هذا الصدد أحد أصدقاء «ماليشرب» واسمه «أندريه شنيه» هذه الابيات التي لم تعرف الا من بعض الاصدقاء :

أنا أتهم الرياح ، وهذا البحر الذى أفقدته الغيرة صوابه بتعطيل أو ربما باغراق «لابيروس» •

وفي وسط الجو المكهرب تحركت شهوة «ماليشرب» للرحلة ولكن سرعان ما اصطدمت هذه الشهوة بصخرة صلدة أوقفتها عند حدها •• صخرة كبر السن ، والصحة الذابلة • ولكنه كان يحب هؤلاء البحارة الشجعان ، فمهمتهم السامية هي تغذية دائرة معارف المسالك البحرية واكتشاف طرق ملاحية جديدة عبر البحار والمحيطات • فكر «ماليشرب» في شاتوبريان ذلك الاديب الناشيء ، وعول على اقناعه للابحار الى الدنيا الجديدة •• أمريكا •

استقبل الرحالة المتقاعد أديبنا الشاب في صبيحة أحد الايام وأخذا يدرسان في خارطة أمامهما خطوط الطول بين ممر «بهرنج» وخليج هدسن وكان «ماليشرب» في ذلك الوقت مقتنعا بأنه في يوم من الايام سوف يكتشف طريق برى بين أمريكا والهند يسير في الاتجاه الشمالي الشرقي ، تملك حب الاكتشاف والمغامرة رينيه ، فوافق على مشروع صديقه ، فقد خيل اليه أنه مستكشف عظيم بالرغم من جهله استعمال « البوصلة » وغيرها من أدوات الرحلات الطويلة • كان فارسنا على يقين بأن أبواب المجهول سوف تتفتح أمام قوة الشباب •

في ربيع سنة ١٧٩١ أبحر شاتوبريان من سانت مالو الى بالتيمور وزار عدة مدن أمريكية • فلقد ذهب الى نياجرا ومنها الى أوهيو واستمر في رحلته في هذه المقاطعة حتى وصل الى نقطة تلاقيها «بكانتكي» وهنا يمكننا أن نتصور سعادته وهو يتتبع شواطيء المسيسبي ويرى فلوريدا ويدون مذكرات رحلته • ثم الى كندا وملأ عينيه بمنظر بحيراتها الساحرة بعد هذه الرحلة رجع شاتوبريان إلى فرنسا ، وهو يحمل في مخيلته صورا طبيعية مختلطة ومضطربة : من غدران هادئة تعلوها الشمس الآفلة وأمواج هائلة غاضبة تتكسر على صخور الشاطيء الناتئة ، الى دغل محدود المساحة ملتف الأفنان يسوده السكون والهدوء وينادى كل محب للعزلة والوحدة •

كانت وحدة أو عزلة شاتوبريان من نوع جديد فهو كلما أمعن في صحراء عزلته ازداد ايمانا بأن الجماعة سوف تطرق عليه باب صومعته وتقدم اليه آيات الاعجاب والتقدير •

كما كانت تفعل الأطيار المختلفة التي صادفته في رحلته • تلك

الاطيار التى كانت تترك أفنانها وتقترب منه مغردة ، مترجمة بلغتهـــا الخاصة عن تقديرها له واعجابها به •

لقد انتهى الآنمن الأمريكيين والكنديين بانتهاء رحلته التىاستغرقت ثمانية شهور ، ولكنه أفاد منهم الكثير حتى يخيل للمرء أن شاتوبريان قد قضى فى رحابهم عشرين سنة أو أكثر ولقد خرج من رحلته هذه بنتيجـة هامة هى : أن الارض على اتساعها لاتتسع لآلامه وشجونه •

اضطربت حياة فرنساالسياسية فى ذلك الوقت، ودبت فىأوصالها الفتن والقلاقل • فلبى شاتوبريان نداء الواجب وتطوع فى جيش الامراء فى ١٥ يوليه سنة ١٧٩٢ وكانقبل ذلك بقليل قد تزوج ، من فتاة غنيــة إختارتها له أخته لوسيل • ولقد أثبتت هذه الزوجة الغنية فيما بعد أنها امرأة فاضلة شجاعة •

استفاد شاتوبريان الشيء الكثير من خدمته العسكرية ، فقد وقف على نوع الحياة العسكرية ، وعلى الحقائق الخفية التى لايصل اليها الا من يخدم فى صفوف الجند ، ويصول فى ميادين القتال ، وأخيرا وصل الى مايمكن أن نسميه «بشاعرية الحب» جرح شاتوبريان فى هذه الحرب وهو يقاتل بالقرب من «ثيونفيل» ، ودب فى جسمه المرض ، ولذلك سافر الى بروكسل ومنها الى جرسى •

قلنا أن شاتوبريان قد استفاد من حياته العسكرية وبقى لنا أننقول أنه قد استفاد كذلك من رحلاته وأسفاره • كان السفر يغذى أدبه وفنه فهو منهل عذب ، وجد مصبه الطبيعى فى روح شاتوبريان الشاعرة الحالمة كثرت مخطوطات شاتوبريان أثناء رحلاته ولقد وجد فى هذه المخطوطات ضمن أشياء أخرى — قصائد من الشعر الحماسي المنثور وقصة قصيرة ، عنوانها «اتالا» كان شاتوبريان يعتز بهذه القصة ولذلك كان يضعها فى حقيبته العسكرية ويحملها معه الى ميدان القتال • ومن أجل ذلك أصيبت هذه القصة بمقذوفين ناريين فى ممر « لاموسل » لم تكن الحالة لتسمح بنثر زهور الرحمة والبر على «أتالا» حينظهورها لأن مؤلفها كان معتدلا فى نصرانيته ، فاضطهدت القصة كما اضطهد المؤلف • تحت هذه الظروف القاسية اضطر شاتوبريان الى مغادرة فرنسا والسفر الى انجلترا •

وهنا ترفع الستار عن حياة مظلمة بائسة شاحبة• انفق شاتوبريان فى انجلترا عدة سنين سوداء قاسى خلالها الأمرين • لقد ذاق طعم المرض والبؤس والتعب ، وعرف الحياة على حقيقتها السافرة • كان مورده الوحيد للعيش فى انجلترا —وهو المورد الذى أنقذه من الموت جوعا — كمية المال الضئيلة التى كانت تصله من أسرته

وكذلك أجره الهزيل الذى كان يتقاضاه نظير أعماله المرهقة المتعبة نظير اشتغاله ، بأعمال الترجمة ، واعطاء الدروس فى اللغة الفرنسية •

فى هذا الجو القاسى أتم شاتوبريان مؤلفا دمويا — ان صـــح هذا التعبير — فهو مؤلف شديد يتفشى فيه الالحاد والكفر • ونعنى به «رسالته فى الثورات» •

كان شاتوبريان قد انتهى من الجزء الاول من هذه الرسالة حينما وصله خبر موت أمه واحدى شقيقاته • أثر فيه هذا الخبر تأثيرا كبيرا ، فانعكست أوضاع تفكيره وتغيرت نظرته الى الحياة حتى انه ارتد فجأة الى المسيحية وصار من أفرادها المخلصين • وقد قال في هذا الصدد : « انى أبكي •• وأعتقد » ونستطيع تعليل سهولة هذا الارتداد • فشاتوبريان لم يكن في حاجة الى العلل والاسباب والمقدمات كي يصل الى الاعتقاد الراسخ المتين بل كان يكفيه أن العقيدة حلم حنون رائع جميل • وأحلام شاتوبريان التى من هذا القبيل سرعان ما تصبغ أمام عينيه بصيغة الحقيقة التى لاريب فيها •

لما تغلغل الاعتقاد والايمان في نفسه صمم على محاربة الالحادوكانت الخطوة الطبيعية للبدء فى هذا العمل أن يبذل جهده فى محو أثر كتابه الاول «رسالة في الثورات» وهكذا بدأ وهو فى لندن يؤلف كتابه الخالد «عبقرية المسيحية» • ثم زادت ثورته النفسية فرجع الى فرنسا ، وضمسنة ١٨٠١ قصته «أتالا» التى وصف فيها مشاهداته وتأثراته خلال رحلته الى أمريكا وكندا ، بكتابه الجديد «عبقرية المسيحية» الذى أحدث ثورة فى عالم الادب •• فقد كان هذا الكتاب تحفة فنيـــة خالدة أحيت اللغــة ، ووجهت الأفكار وجهة جديدة •

اخرج شاتوبريان كتابه «عبقرية المسيحية» فى الوقت المناسب •• ساعة الصلح الدينى حيث صمم المجتمع الفرنسى على الائتلاف مع الكنيسة• كانت أحوال المجتمع آنذاك فى حالة ماسة الى التشذيب والتنقيح فلقد كانت ريح الارستقراطية وعطر البلاط ضمن عناصر الجو الفرنسي ، كانت هذه الروائح تفوح وتعبق وتنعقد فى سماء المجتمع الفرنسى• كانت النساء تذهب الى البيعة وفى ركابهن الجمال والشباب فيلتف حولهن الرجال وينثرون تحت أقدامهن عقود المديح والغزل • وهكذا خلا المحراب فى كل كنيسة من زواره المؤمنين وأصبح لمدة طويلة مهجورا ينعى من بناه ولذلك اصبح من الطبيعى أن يحن أهل فرنسا الى الماضى • وأضحى كل من يتمتع بالشباب ، وكل من كان مـزاجه يشعر بأنه يعيش فى وادى أحــــلامه ـ كشاتوبريان ـ يبكي •• ويعتقد •

كتاب شاتوبريان «عبقرية المسيحية» عظيم الخطر من جميع نواحيه اعتبره النقاد معجزا فى أسلوبه ، وفى أفكاره ومعانيه ، وأخيرا فى ثروته الدفاعية عن الدين وقد ظهر هذا الكتاب ـ بعد ضم قصة «آتالا» اليه ـ سنة ١٨٠١ ضمن مجموعة «شعائر فرنسا» وكان ماليشرب العجوز فى ذلك الوقت يرقد فى لحده بمقبرة «ماديلين» ولا يعلم أن صديقه الرحالة قد رجع من كندا بقصة كاثوليكية دينية •

فى ذلك الوقت رآه بونابرت وأراد أن يتوج به فرنسا التى يحكمها حكما مطلقا • وكان شاتوبريان بطبيعة الحــــال على أهبة لتلبية نداء رجل عظيم يريد لهالمجد والعظمة وهكذا أصبحالسكرتير الاول فى السفارة الفرنسية بروما • ولقد حدث أن قتل «الدوق دنهاين» فأرسل شاتوبريان استعفاءه من منصبه الى الحكومة فى باريس فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٤ ثم

سافر الى الشرق بعد أن وضع التخطيطات الاولية لقصة «الشهداء» وكان ذلك سنة ١٨٠٦ فزار اليونان وبيت المقدس ، وعاش فى جو الشرق جو الخيال والسحر وأخذ يبحث عن صور الطبيعة ولوحاتها ، ويفتش وينقب عن المجد ٠

وأخيرا صمم على الرجوع ووصل الى العاصمة الفرنسية فى ٥ يونيه سنة ١٨٠٧ ٠

بعد رجوع شاتوبريان الى فرنسا أرغمته الحوادث أن يغير مجرى حياته الى اتجاه جديد فقد حدث سنة ١٨٠٩ أن أعدم عمه «أومان دى شاتوبريان» لاعتباره من أنصار الملكية ٠ ولقد عجز تمام العجز عن مد يد المساعدة لعمه ولذلك نقم على الامبراطور ، وأصبح من العسير أو من غير الممكن أن ترجع علاقتهما على ماكانت عليه فقد دب الخلاف بين الرجلين واستحكمت بينهما الجفوة وزاد النفور بسبب هذه الحادثة المؤلمة ٠ ثم حدث بعد ذلك بقليل أن انتخبته الاكاديمية الفرنسية ليكون عضوا من أعضائها ، فقدم رسالته لهذا المجمع الشهير ، وهنا تدخل نابليون وأمر بعدم نشر الرسالة ٠

ويسدل الستار سنة ١٨١١ على حياة شاتوبريان الأدبية ليرفع من جديد عن حياته السياسية ، شغل شاتوبريان مناصب سياسية كبيرة ٠٠ شغل منصب السفير والوزير والديبلوماسى ٠ ولقد عالج مهام هذه المناصب جميعها بطريقته الخاصة التى تتلخص فى كلمة واحدة التنقيح، أوالترميم ولقد وقف من رجال الدولة موقفا وسطا : فهو لم يساير أو يحابى الملكية وفى نفس الوقت لم يحتقر رجال البلاط ٠٠ رجال العهد الماضى ٠

بعد سنة ١٨٣٠ ارتبط شاتوبريان برباط الشرف بالاسرة الملكية الشرعية فى فرنسا ٠ وكان من نتيجة هذا الموقف أن احتقر عائلة « الأورليانز » وأمراءها وسياستها وكل ما تمثله أو تقوم به من أعمال ٠

بقيت لنا كلمة قصيرة نقولها قبل أن نودع شاتوبريان ونوسده قبره وهى كلمة عن مدام «ريكاميه» تلك السيدة الأديبة التى خففت صداقتها من آلام شاتوبريان وادخلت فى نفسه السلوى والتعزية ، استطاعت مدام ريكاميه أن تجمع حول اديبنا رجال عصره النابهين ٠ ولقد أفاده ذلك من ناحيتين : الأولى أنه بعد عن العزلة والوحدة بعض الشىء ، والثانية أنه استفاد من ثقافاتهم العالمية ٠

مات شاتوبريان فى ٤ يوليه سنة ١٨٤٨ وكان قد أوصى ذويه بدفنه بالقرب من سانت مالو على قمة صخرة «جراند بى» فكأنه أراد وهو يرقد رقدته السرمدية أن ينعم بصوت تكسر الموج ٠٠ ذلك الصوت الذى كان أول شىء نفذ الى أذنيه حينما وجد فى هذا العالم ٠

***

شخصية شاتوبريان :

لشاتوبريان روح موحشة تحب العزلة وتميل الى الوحدة ، كان اديبا بفطرته ، وبطبيعته ، وبما اكتسبه من ثقافة، يعشق الفن ويحب الخيال

ولقد كيفت الظروف شخصيته فأصبحت معقدة ، ومتعددة الجوانب يصعب تحديدها وتحليلها على الوجه الأكمل ٠٠ ومن أخص مميزات الروح الموحشة أو النفس المنعزلة أنها تجعل شخصية صاحبهـا قوية فى عنف فيصعب الاحاطة بها أو مقارنتها بغيرها ٠ لقد عودته طفولته الشاذة الغريبـة ألا يقيم كبير وزن لشعور غيره ، وخاصة اذا تعارض هذا الشعور مع شعوره هو واحساسه ولقد كان من نتيجة تربية والده الجامد الصامت أن جهل شاتوبريان النعومة والرقة فى التقبل وفى الاعطاء ، ولكنه رغم ذلك لم يكن يخلو من النعومة والحنان فقد أحب صداقته وغرامياته بمعنى أنه خلق من نفسه صديقا لنفسه ومحبا لنفسه فى آن واحد هكذا أحب شاتوبريان نفسه أكثر من حبه لاصدقائه ٠

كانت الكبرياء من أهم صفات شاتوبريان الاخلاقية فهى متغلغلة فى صميم نفسه منتشرة فى كل تضاعيف ذاته ويرجع السبب فى ذلك الى مدة اقامته فى «دومبورج» ففى خلال هذه المدة الطويلة من حياته لم يختلط بشخوص انســانية ــ خارج محيط اسرته ــ وبذلك حرم من دراسة أعماق نفوسهم ، تلك النفوس التى يحاول بعضهم أن يغلفها بقناع زائف حتى يجهل الناس أمرها ٠ أما هو فقد أقحم نفسه فى نفسه ــ ان صح هذا التعبير ــ فعرف دوافعها ورغباتها ووجداناتها ٠ لم يشعر شاتوبريان قبل اقتحامه الميدان السياسى بضرورة معرفة شىء عن غيره من النـاس ٠ وهكذا كان يجهل من أمرهم كل شىء ، لانه لم يحاول أن يقف على نفسياتهم وما يجول فيها من دوافع وغرائز وعواطف مختلفة وكان من نتيجة ذلك أن جاءت دراسته لعلم النفس متأخرة ٠ وهكذا تكونت عاداته وتشكلت طباعه وأصبح لايهمه الا شخص واحد فى هذا العالم ٠٠ هو شاتوبريان نفسه ولما كان لايشعر الا بنفسه ، ولا يهتم بغيره من المخلوقات البشرية ٠ فقد احترم هذه النفس احتراما شاذا وحيدا فى نوعه ، احتراما يقرب من التقديس والتأليه ٠

ولقد سمى «اميل فاجيه» هذه الخصلة :

«حبه السخافة اللازمة الضرورية للشعر الحديث» يعتقد شاتوبريان أن الدموع التى تذرفها عينه لم تذرف عين أخرى مثلها ٠ وأن كل شرور وآلام العالم لايحسها الا هو فى نفسه المعذبة المتألمة وانه الضحية التى اختارها القدر من بين الناس جميعا للألم والعذاب ٠

كان شاتوبريان يتمتع بكل أنواع الكبرياء فالكبرياء عنده تعــلو وتسمو حتى تصل الى مرتبة الفضيلة ثم تهبط وتنحط حتى تصير لونا من السخافة والحمق والغباوة ٠ أما النوع الاول من الكبرياء فيتمثــل فى استعفائه من مهامه الحكومية عقب اغتيال « الدوق دنهاين » ونزاهتـــه واستقامته سنة ١٨٣٠ وأخيرا اخلاصه لقضيـة البوربون ٠ أما كبرياؤه السخيفة فتتمثل فى موقفه مع بونابرت وكتـاباته عنه : «بونابرت وأنا ملازمان مجهولان» أو سؤاله : « واذا كنت قدمت فى هذه اللحظة واذا لم يكن هناك شاتوبريان ٠٠ فأى تغيير كان سيحدث للعالم ؟ »

كانت كبرياؤه هذه تقيه الطموح ، وبعبارة أخرى تقتل فيه هــذه الغريزة المستحبة • هو يريد ـ ككل انسان ـ أن يظهر ويعلو ، ولكنه من ناحية أخرى لا (ينجط) الى الوسائل الكفيلة بتوصيله الى بغيته •• هو لايريد الا ابراز اسمه واظهار عبقريته ولكنه لايرسم لنفسه خطة عملية لذلك بل يقبع في ركن بيته منتظرا من يقدم اليه العــالم •• هو ينتظر ولكنه لا يمد يده ••••!

ومن ناحية أخرى كانت هذه الكبرياء بلسما لاعوجاجاته السياسية فهو يريد كل شيء ولكنه في نفس الوقت يحتقر كل شيء لانه يستطيع أن يهبط بالكبرياء الى أسفل وكانت هذه الكبرياء الواسعة (الغير محدودة) مصحوبة لديه بفقدان كلي للارادة • ولذلك كان شاتوبريان يحلم ويرغب ولكنه لا (يريد) •

هل من الضحيح أن شاتوبريان قد عجز حقا عن متابعــة ارادته واطاعة أوامرها ؟ لانعلم لان شاتوبريان نفسه لم يحاول أو يجرب ومن ناحية أخرى لايستطيع الباحث أن يستخلص من حياته عملا ارادياً واحدا فكل أفعاله تقريبا ينقصها الطابع الايجابى وتتحلى بالطابع السلبى ، ذلك الطابع الذى من شأنه أن يتقبل ولا يعطي ويتأثر ولا يؤثر • وقد ترتب على ذلك أن كل نشاطه ـ والنشاط يوسم دائما بالطابع الايجابى ـ كان لا يظهر الا فى أفكاره وأحلامه • ولهذا أسس شاتوبريان عالما فى مخيلته ونصب نفسه سيدا لهذا العالم • ولقد وجد فى هذا السرور كل السرور ، وأحس أنه فى غير حاجة لمخلوق ، ويشعر بالانسانية جمعاء تصول وتجول عــلى مسرح نفسه •وهكذا قادته الكبرياء وأوصلته مخيلته الى•••• اللانهائية•

والآن يحق لنا أن نتساءل : كيف يستطيع شاتوبريان الخروج من كل هذا ؟ وهو قد أدمج حياته كلها فى نفسه ، وأخــذ يعيش بعواطفه لابأعماله وعقله، ويطلب متاعه من الاحلام لامن الحقيقة• ولكن الاحساسات سرعان ماتنثلم وتحتاج الى اعادة البناء والتجديد باستمرار ، فأحــلام نفسه وجها لوجه أمام العدم من جديد وهكذا عبر شاتوبريان طريق الحياة وهو يحمل على ظهره عبئا ثقيلا •• يحمل الآلام والأحزان ولقد أصبحت هذه الحالة طابعا له فى كل كتاباته : دون شاتوبريان فى مذكراته فيما يختص بساعة مولده «اننى لم أعش الا ساعات قلائل ولكن ثقل الزمن كان قد رسم خطوطه فوق جبهتي» •

كان شاتوبريان ـ لكى يتسلى بآلامه ـ يجد لذة كبرى فى تضخيم ومبالغة أسبابها • وكانت الكبرياء تأبى عليه الآلام العادية والشــقاء المعروف • ولهذا السبب تراه يوضح فى الجزء الاول من مذكراته الظروف المعاكسة وسوء الحظ الذى لازمه فى حياته ولقد أطنب وأطال فى شرح وتفصيل تجاربه فى طنطنة ولعلعة لسان • وحلل رغباته وآماله ، ولم يعجبه أن يظهر فى مذكراته بمظهر الرجل الذى ينحنى تحت ثقــل لوم النفس أو تأنيب الضمير وأخيرا يحلل شاتوبريان حياته الباطنية وحياته الظاهرية دون أن يستطيع ارواء ظمأ عواطفه التى تحرقه وتلهبه • كان شاتوبريان يتمتع بذكاء مفرط حاد فى بعض النواحى الخاصة • وكانت

عبقريته السياسية لاتخلو من الادعاء والتظاهر فشاتوبريان على العموم لايمتاز ـ من الناحية الادارية ـ عن غيره من رجال الحكومة ·

فهم شاتوبريان التيارات السياسية الهامة التي كانت تخضع لهـا فرنسا وأوربا : فقد كتب كثيرا عن «المسألة الشرقية» وقال انه سـوف يكون لها مستقبل ديبلوماسي وكان محقا في حكمـه حـين قال بوجوب تضامن مستشارى الملك شارل العاشر ـ في تلك الظروف الاستثنائيـة التي تمخضت عنها الثورة ـ مع الاهالي · وكذلك قوله باستحالة محـو نفوذ الصحافة ، أو كبت قوة تأثيرها في الرأى العام · فالصحافة ضرورية للأمة ، وحتى اذا نتجت بعض الشرور فمن الواجب أن يعيش الانسـان بجانب هذه الشرور ·

كانت الحرية متأصلة في نفس شاتوبريان : حرية سلبية ولكنهـا حقيقية · فشاتوبريان ـ رغم المظهر الطنان الذى أحاط به نفسه ، لم يكن يقوم بدوره السياسي على الوجه الأكمل وتبعة ذلك تقع من غير شـك على شخصيته وتكوينه النفسي ·· لقد منع شاتوبريان من اتمام ماكان يريد ·

رسم لنا شاتوبريان في مذكراته لوحات فكهة رائعة عن الحياة في المفوضيات والسفارات وعن السفراء والوزراء ورجال الحاشية : فهذا هو مسيو «بورمون» صاحب المظهر الطريف الروحاني والانف الدقيق والأعين الجميلة الهادئة التي تشبه عيون الأفعى ! وهذا هو «لافيت» الذى يسره كثيرا أن يدس بأنفه في التيارات السياسية «ويستنشق رائحة الثورات» وهذا هو مسيو « دى بوليناك » : لقد أقسم لى أنه يحب القانون الأساسى (كارتا) مثلى تماما ·· ولكنه يحبه عن قرب أكثر !!·

ويمكن القول أن ذكاء شاتوبريان رغم ذلك لايملأ من شخصيته الا بقعة صغيرة اذا قورن بخياله الواسع الخصب فنحن اذا أخرجناه من حياته السياسية ومن مذكراته ، ونظرنا اليه في واقع مؤلفاته الأدبيـة فقط ، أصبح من العسير علينا أن نميز فيه ـ كما يقول لانسون ـ الناحية الروحية أو نتوسم في عقله ذلك الذكاء الذى رأيناه بل يبدو لنا سابحا في بحر خضم يحاول أن يقتنص منه لآلىء الأفكار وصدفات المنطق المفهوم المعتدل فمحصوله الثقافي ، وطريقة دراسته واقامته الطويلة في «كومبورج» كل ذلك لم يؤهله للتفكير · لقد قرأ فولتير وديدرو ، وجان جاك روسـو ، والأنسيكليوبيديا (دائرة المعارف) : هذه هي كل المصادر التي نبعت منها أفكاره · وبالاختصار نجد شاتوبريان ـ بذلك الذكاء الذى يرتفع فوق المستوى العادى درجات قليلة ـ يخرج لنا أفكارا معتدلة ·· لاتسمو الى أفق التفكير الفلسفي ولا تنحط الى تفكير العامة · وذلك لان هذه الافـكار ليست الا انعكاسات مباشرة لعواطفـه · وبمعنى أدق أنهـا ليست الا احساساته الشخصية وعواطفه الذاتية مصاغة في عبارات أو مرسومة في لوحات ·

ان طبيعة ذكاء شاتوبريان ليست بالطبيعة الفلسفية أو العملية ، ولكنها طبيعة فنية ، ولذلك فهو يخلق الصور الرائعة ولا يخرج الافـكار المنطقية · وهو في انتاجه هذه الصور لايتبع قانون الحقيقة ولكنه يلازم

قانونه الفني الخاص .. قانون الجمال ، فشاتوبريان قبل كل شيء هو الفنان .. والفنان فقط .

***

عبقرية المسيحية : ـ

هو ذلك الكتاب الخالد ، الذي قال عنه مؤلفه شاتوبريان : « أنه جاء بلسما وفي وقته » . ولقد صدق شاتوبريان في قوله . فهذا الكتاب كان بمثابة القبلة للقرن الجديد المولود الذي ابتدأ يحبو في دورة الزمن .

كان من الواضح أن المسيحية في حاجة ماسة الى من يرمم هيكلها ويعيد اليها اعتبارها . فطبقة النبلاء في القرن الثامن عشر كانت قليلة التدين أو على الاصح كانت تعتنق التيارات (اللادينية) التي وجدت أعظم الرواج في سوق البلاد . وكذلك كانت الطبقة الوسطى (البورجوازية) ، تلك الطبقة التي ابتدأت تخرج من ظلمات الجهل الى نور العلم والمعرفة . كانت الحالة كذلك لان الفلاسفة كانوا قد أخرجوا للناس معتقدا جديدا . جعل المسيحية في نظر الجميع غريبة فاسدة وحشية ، لا يؤمن بها الا قلة من الاغبياء .

وهكذا أصبح من أقدس الواجبات خلق احد المعتقدات القوية المؤثرة ليضاد المعتقد الاول ويقف في سبيله كالصخرة الشماء هذا ما رآه شاتوبريان بجلاء ورأي أمامه الفرصة السانحة تدعوه وتلح في هذه الدعوة فلم يسعه الا القبول .

كانت فكرته الاساسية من وضع « عبقرية المسيحية » هي أن يثبت أن الديانة المسيحية من بين جميع الديانات هي الاكثر شاعرية ، الاكثر انسانية ، ثم أنها هي ألصق الديانات بالحرية والفن والادب التي هي من ضرورات العالم الحديث ...

وانه لايوجد اكثر قدسية من اخلاقها ولا اكثر محبة من اسسها وقواعدها وتعاليمها ومذاهبها . فهي تنمي العبقرية وتصفي الذوق وتقوي الاحساس بالفضيلة ، وتعطي قوة وطاقة للتفكير ، وتقدم هياكل نبيلة للكاتب وقوالب رائعة للفنان .

اذا نظر الباحث الى « عبقرية المسيحية » من وجهة نظر الفلسفة والمنطق وجد هذا الكتاب ضعيفا هزيلا . فشاتوبريان لم يستخدم المنطق السليم أثناء دراسته ، بل نراه مولعا بالعلل الغريبة التي توصله من غير شك الى معلولات غريبة أو أغرب . لقد كان شاتوبريان يكتب مايكتب وفي نفسه اعتقاد وفي قلبه اعجاب وبذلك استطاع أن يجعل القاريء يعجب ... ويعتقد !

كان شاتوبريان يعتقد ان من يجرد الديانة من مسحة الغرابة والبعد عن المألوف فانه في نفس الوقت يهدم قدسيتها ويخرب روحانيتها . بل لقد ذهب الى أكثر من ذلك فقال ، كلما تعمق المرء

فى المسيحية رأى أنها ليست الا امتدادات الانوار الطبيعية والنتيجة الضرورية لهرم المجتمع .

اثبت شاتوبريان وجود الله بواسطة عجائب الطبيعة . كما أثبت خلود الروح بواسطة الاخلاق والعواطف . فما دامت أوكار الطيور محكمة الصنع فالله اذن موجود .. وبعض الطيور لها هجرات خاصة فالله اذن موجود ... ان التمساح يضع بيضه كما تضع الدجاجة فالله اذن موجود ... لقد رأيت ليلة جميلة فى امريكا فالله اذن موجود ... غروب الشمس الجميل على البحر فالله اذن موجود .. ان الانسان يحترم المقابر فروحه اذن خالدة .. ! ! »

يقترب شاتوبريان هنا من برناردان دى سان بيير ، ولكنه سرعان مايبتعد عنه بعدا شاسعا : فان الله الذى يتكلم عنه شاتوبريان ليس هو الله المشتق من عالم الفكر المجرد أى أنه ليس هو الله (النظرى) او (الفكرى) وانما هو رب الكاثوليكية الحى !

لم تكن دراسة شاتوبريان للدين دراسة ناضجة بل دراسة طفولية . فنراه مثلا يقول فى معرض كلامه عن الكاثوليكية : فى اللحظة التى توجد فيها الكاثوليكية — وليس الاعتقاد بالله — فان البرهنة الغريبة سرعان ماتصبح مجموعة من الآراء والأفكار الفريدة : « لذلك يجب أن نكتسب موهبة التجريد والا انزلقنا الى هاوية الايمان بالمحسوس . ولم نتوصل أبدا الى الايمان بالمطلق الكلى . لقد ورث الفرنسى من قديم مع عاداته ومدنيته الكاثوليكية ولكنه تخلى عن كاثوليكيته فى العصر الحديث لانه بدل أن يثبت ويبرهن اعتقاده الدينى أخذ فقط ينعشه ويقويه » وهكذا يتدخل شاتوبريان لانقاذ الفرنسى وارجاعه الى الكاثوليكية القديمة . فأخذ بلوحاته الطبيعية يوقظ نفوس معاصريه وينعش فيها الامواج الروحية التى طال رقادها ، ويوجه هذه الامواج لصالح الكاثوليكية .

لقد كانت دعائم المسيحية مشيدة من قرن مضى على أفكار غريبة شاذة . فحولها شاتوبريان بكتابه هذا الى أفكار اخاذة متنوعة فخمة !

يقول لانسون :

لسنا نعرف على وجه الدقة هل أفلح شاتوبريان فى انتقاء الوسائل التى تحقق له أغراضه من انشاء هذا الكتاب ام لم يفلح ولكننا نعرف أن الكتاب نفسه قد قطع الطريق بسهولة الى قلوب القراء وأثر فى نفوسهم اكبر الاثر وذلك لان شاتوبريان اقام هيكل الاعتقاد على صرح فنى شعرى .

ولهذا الكتاب أثره القوى فى عالم الادب من ناحيتين هامتين :

الناحية الاولى هى ناحية الكتاب التحليلية التى ضمنهاشاتوبريان عواطفه ووجداناته أى ضمنها عواطف ووجدانات الفنان الملهم والاديب العبقرى . وكذلك صورة الطبيعة ولوحاته الفنية التى رسمتها ريشته وهى متأثرة بمشاهدات الرحلة فى بريتانى والعالم الجديد .

الناحية الثانية وتتلخص فى تلك الصبغة الشاعرية المستحدثة التي شاعت فى هذا الكتاب . فهذه الصبغة الشاعرية قد إكسبت الكتاب طرافة خاصة تظهر عند مقارنته بما كتب وألف من كتب دينية من عهد المسيح الى أوائل القرن التاسع عشر . فكل هذه الكتب اساسها المنطق الجامد ، والتقيد بالتاريخ وحوادثه . أما « عبقرية المسيحية » فيمتاز بذلك الاطار الفنى الشاعرى الذى سبق الاشارة اليه !

***

أتالا ورينيه والشهداء :

تصادمت قصة شاتوبريان « أتالا » بتيارين معارضين : احدهما تيار نقد شديد لاذع ، وعدم ارتياح لظهور مثل هذه القصة ويمثل هذا التيار فئة الفلاسفة الذين قالوا :

« ان الاب «سافويار » يتكلم بأكثر حرية وأكثر فلسفة من الأب أوبرى » الذى هو فى الحقيقة متعصب دينى لا أكثر » أما التيار الاخر فهو تيار الاعجاب الشديد والرضى التام عن « آتالا » ويمثل هذا التيار النساء : فقد وجد فيهن شاتوبريان ضالته المنشودة . لقد استطاع بسحر بيانه أن يحرك عواطفهن ، ويضرب على الوتر الحساس من قلوبهن . لقد بكين وبذلك أعربن عن حبهن « لآتالا » ومؤلف آتالا ..

وكما أن شاتوبريان قد اخذ مادة قصته « آتالا » من سياحته القصيرة الامد فى شمال أمريكا . فقد استخلص مادة قصته الثانية « رينيه » من قصر « كومبورج » . ان « رينيه » بطل القصة هو نفس « رينيه » دى شاتوبريان ففى هذه القصة يتحدث شاتوبريان عن نفسه وعن أخته لوسيل فهو قد أمضى فترات طويلة فى بهو القصر القديم مع أخته . ولذلك خيل اليه انه قد حدد شخصيتها ، ولكن الحقيقة غير ذلك تماما . فرينيه قد حدد شخصية أخته ولكن بطريقته الخاصة . لقد رسم هذه الشخصية كما يتخيلها فى أحلامه التى تشوبها الاثرة لا كما هى فى الواقع . والآن لنعد الى البطل « رينيه » ، ان السر فى متاعبه وحياته المملوءة بالاشباح الشاحبة المزعجة وفى لياليه الطويلة المهدة يرجع الى أن الحب ينقض روحه الواسعة التى تحتوى العالم كله .

ولقد أدرج شاتوبريان قصته هذه « رينيه » بشجاعة زائفة فى كتابه « عبقرية المسيحية » عام ١٨٠٥ .

بقيت كلمة نقولها عن قصة « الشهداء » . حاول شاتوبريان فى هذه القصة أن يواجه عالمين : العالم القديم والعالم الجديد ... عالم الالحاد وعالم المسيحية . وبعبارة أخرى أراد ان يبين لنا طبيعة الرجل القديم المستوحش ، وطبيعة الرجل المتمدين أى المتمتع بالمدنية الاوروبية . والظاهر أن شاتوبريان قد تلقف هذه الفكرة من جان جاك روسو . ولكنه لم يتركها على حالها بل وسع دائرتها واضاف اليها عناصر جديدة .

لم تنجح قصة شاتوبريان هذا النجاح الذى كان يتوقعـه لهـا فشاتوبريان لم يدرس ذوق القراء فى زمنه ولذلك لم يقدم له ـ فى هذه القصة ـ مايرضيه . لقد وجد القارىء فى كل صـفحة من صفحات هذا الكتاب الكثير من الاساليب الملتوية القاسية المتسلطة ان صح هذا التعبير ، والصيغ الجامدة الشاذة . ولهذا لايوجد مجال لمقـارنة « الشهداء » ، « بأتالا » التى تمتاز بأسلوبها البسيط وصـيغتها المألوفة .

***

لوحات شاتوبريان الطبيعية : ـ

كان شاتوبريان يحوى العالم الخارجى ... عالم الطبيعة الحية فى داخلية نفسه . فليس من المستغرب اذن أن يعبر عنه فيحسن التعبير ، ويصوره فيجيد التصوير فهو يترجم ما تنقـله اليـه الحواس كما يترجم العواطف المسـتعرة فى قلبـه . وهكذا كتب لشاتوبريان ـ وهو يتمتع بهذه الموهبة الوصافة ـ الخلود فى معظم انتاجه .

كان لشاتوبريان حساسية الرسام ، فنجده يخترق بعينه وروحه مظاهر الجمال حتى يصل الى مستقرها الباطن . فاذا ماعرف كنـه هذا الجمال وجوهره نقله للقارىء فى صور بيانية أخاذة ، تحـدث نفس الاثر الذى تحدثه لوحة رسام عبقرى .

ومن هنا يمكن تفسير ضعف شاتوبريان فى التحليل النفسى : فهو (يرى) الاشخاص ولكنه لا يحاول تحليل خلجاتهم النفسـية وتياراتهم العاطفية . وبمعنى آخر هو لا يستلهم منهم الفكرة النفسية أو الخلقية بل هو قادر فقط على استخراج فكرة الجمال منهم ، فلوحات شاتوبريان اذن التى رسم فيها أشخاص قصصه وأبطال رواياته هى لوحات فنية جميلة مؤثرة ولكن تنقصها ظلال التحليل النفسى .

شاتوبريان عاجز مقهور أمام الطبيعة : بمعنى انه يصورها كمـا يراها بعينيه من غير تغيير . فوصفه لليل مثلا مختلف متغير لا تتشابه فيه صورتان قط : ليل البحار .. ليل أمريكا .. ليل اليونان .. ليل آسيا .. ليل الصحراء ..

ويرجع هذا الاختلاف الى سبب بسيط هو اختلاف مناظر الليل فى الطبيعة نفسها . وكذلك كان وصفه للمناظر الطبيعية الاخرى : من غموض غابات أمريكا ، وفخامة جبال اليونان ، والسماء المنخفضـة الملبدة بالغيوم فى « جرمانيا » ثم سماء ايطاليا المشرقة الضاحكة . وأخيرا كل الصور التى قدمتها الطبيعة والانسان لعينيه . لقد صور كل ذلك بأسلوبه الخاص ، ولكن من الصعب تحليل طريقته فيجب رؤية صوره للشعور بها فهذه الصور بما فيها من تشبيهات واستعارات ليست من الادب تماما ، بل هى أقرب ماتكون الى الرسم والتصوير !

نفوذ شاتوبريان : ـ

يقول النقاد انه يوجد فى انتاج شاتوبريان أجزاء برمتها غير خليقة

بالحياة . مثل أفكاره الفلسفية ، وتعابيره المتسلطة الجامدة ، ثم طريقته فى مزج العنصر الكلاسيكى بالعنصر الرومانتيكى ، وأخيرا تفاهة نظرته ودراسته للمدنيتين الاغريقية والرومانية .

أعطى شاتوبرمان لجماعة مذهب الادب الابتداعى دروســـا فى المذهب الفردى ، فنحن نعلم أن أبطال ميدان الادب الرومانتيكى — وهم ضحايا ذلك القدر القاتم — يسرهم الاستسلام والخضوع دائما لاحكام الحياة وأوامر القدر . ففى قصة « رينيه » نفسها يجد القـــارىء صـــدى للثورة وللجريمة ، ويحس بذلك الشعور ... شعور من يناضل وهو أعزل ضد المجتمع : « هو يشعر أنه برىء ، ولكن ادانة القـــانون له جعلته يعتقد بانتصاره على النظام الاجتماعى ! »

ان المتاعب والبلبال وكل أمواج العـــذاب التى تجتـــــاح نفس شاتوبريان ، كل ذلك يعيد لاذهاننا صورة حياة أخرى تشبه هـــذه الحياة ... صورة حياة شاعر الحب والجمال لامارتين . فالقارىء لانتاج شاتوبريان يحس أن هذا الانتاج لا ينقصه الا شعر لامارتين . وشاتوبريان حينما يقرض الشعر نخاله يملأ تلك الهوة التى تفصـــل بين « فونتان » أو « شينيدولى ، ولامارتين » .

ولقد تأثر الشاعر الكبير فيكتور هيجو بشاتوبريان ، وذلك من ناحية أوصافه الرائعة وشعره الحماسى ثم تبحره التاريخى . وليس من المستبعد أن يكون شاتوبريان قد بنى لهيجو الهيكل الاول لبعض قصصه الخالدة . فانه يوجد فى خيال « الشهداء » فكرة « قصـــة العصور » .

ان فن رسم اللوحات الطبيعية سواء فى القصص أو التاريخ أو الفلسفة ، ذلك الفن الذى تمثل فى كتابات ساند ، لوتى ميشليه ، ورينان . يرجع الفضل فى اكتشاف منبعه الى شاتوبريان أولا ثم سرعان مافاض هذا المنبع فى كتابات هؤلاء الاعلام الذين ذكرناهم .

فشاتوبريان بدوافعه الالهامية استطاع أن يشيد هيكل الادب وصرح الفن والجمال على انها أشياء جوهرية .

لقد أثر اسلوبه فى كثير من الادباء : فلقد قدم عبارته فى قـــوالب مختلفة . فتارة سهلة وتارة قاسية ومرة متماوجة ثائرة ومرة فخمة هادئة . كما أن أسلوبه يمتاز بميزة أخرى : فنثر شاتوبريان يمكن أن يعد من الشعر المرسل الذى لا ينقصه الا الوزن لانه يحدث نفس اثره الفنى .

وأخيرا يجىء دور التاريخ . تأثر بشاتوبريان الكثير من المؤرخين بل يمكن القول أن شاتوبريان قد (خلق) بعض المؤرخين : « فتيرى » قد أصبح مؤرخا حينما قرأ كتاب شاتوبريان « الشهداء » ، واذا لم يوجد شاتوبريان فهل كان يوجد المؤرخ العظيم « ميشليه » ؟

الى هنا تنتهى دراستنا لشاتوبريان .. لذلك الاديب الفنـــان الذى عبر عصره محوطا بكل ألوان المجد . لقد كان وجوده فى أذهان معاصريه كأنصاف آلهة اليونان ولكنه رغم ذلك كله لم يستطع مطلقا أن يطرد أشباح المتاعب والاحزان التى جعلت قلبه فريسة لها .. فقد سكنته مدة ثم تركته خاليا خاويا !!!

برناردان دى سان بيير

(١٨١٤ - ١٧٣٧)

عناصر البحث

طفولته ـ شبابه ـ خياله ومثاليته
رحلاته ـ دراساته فى الطبيعة ـ بول وفيرجينى

يحتل هذا الكاتب فى الادب الفرنسى مكانا عظيما ، يلهم التقدير والاعجاب ، ويدفع الاديب الى تتبع دقائق حياته ، والوقوف على الخطوات التى أبلغته بعد الصيت وخلود الذكر وعلى الرغم من قلة انتاج برناردان بالنسبة لغيره من أفذاذ الكتاب والفلاسفة ، فانه يعد من الفرسان المبرزين فى حلبة الادب ، ويعتبر زهرة نضرة فى طاقة الادب اليانع فى القرن الثامن عشر .

ويعتقد بعض مؤرخى الادب الفرنسى ، أن القرن الثامن عشر حلقة متممة للقرن السابع عشر • ولكنه فى الواقع ينفصل عنه ، اذ يتصل حبله بثورة جارفة ، وبلون من ألوان الادب يسمى الادب الابتداعى أو (الرومانتزم) • ومن يتتبع فى تأمل ودقة تطور الادب فى القرن الثامن عشر ، يصادف كثيرا من الاشياء التى تعتبر اعدادا وتمهيدا لمستقبل جديد ، أو تطور طريف من أطوار الادب .

والكاتب الذى نحن فى شأنه ، ينفصل انفصالا لا يكاد يكون تاما عن الماضى • فلم يعاصر جان جاك روسو ويأخذ عنه ، ولكنه يأخذ من روسو ، كل ماجعل من هذا الاخير أصل الادب الابتداعى .

وقد ولد جاك هنرى برناردان دى سان بيير ، فى التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٧٣٧ بثغر الهافر ، بين أرض تيسر الرزق وتسعد الحياة ، وبحر يجذب اليه الطامحين ويغرى بالمغامرات . ويقال ان آباه نيقولا يضرب بأعراقه الى رجل عصامى (بورجوازى) مشهور فى مدينة كاليه ، من ذوى الالقاب يدعى ايستاشى دى سان بيير . ولم يكن نيقولا من ذوى الثراء ، أو يملك من متاع الحياة الشىء الكثير ، ولم يستطع اثبات نسبة الى ايستاش ، ولهذا كان يكثر من الجهر بهذا النسب فى حماسة عنيفة . وكان برناردان أكبر أولاده ، وهم ثلاثة ذكور وانثى . وكانت امه تقيه ساذجة توفيت فى شبابها ، وقد نشأته فى لين يبلغ حد الرخاوة ، ونمت فى دخيلته عن غير عمد ميله الى المغامرة .

والذين يقرأون كتب برناردان ، لا يستطيعون الا أن يتخيلوه رجلا وادعا لطيفا ، تترقرق على شفتيه بسمة صافية تشع الرقة والحنان . ولكنه فى الواقع ، كان عصبى المزاج ، قلق النفس ، متشككا مهموما ، عزوفا عن اللهو والفكاهة طموحا مغامرا ، أثرا فى أنفه ، متململا فى الحاضر ، مولعا بالمستقبل حتى اذا أصبح حاضرا برم به وسخط عليه . وكان الى ذلك كثير الطلب والالحاح فيه حتى اذا تحقق طلبه ، لم يرضه ماترتب عليه من معروف .

وكان يحب الطبيعة والطير والازهار ، فكان فى الثامنة من عمره يزرع حديقة صغيرة ، ويبكى لآلام الحيوان ، ويخفف عنه أوجاعه قدر المستطاع .

وقبل ان يبلغ التاسعة من عمره ، ذهب به ابوه الى (روان) لتحصيل العلم ، ولما بلغ التاسعة انغمس فى قراءة مجلد ضخم عن حياة (اباء الصحراء) .

وفى صباح احد الايام ، وقد خيل اليه أن سيعاقب فى المدرسة ذهب الى الارباض ومعه غذاؤه فى سلته ، حتى اذا بلغ مدخل غابة صغيرة صورها لنفسه صحراء واعتزم العيش فيها على مثال القديسين ، وايقن أن الله عز وجل ، سيرسل اليه طيرا فى اليوم الثانى تحمل اليه من السماء رزقا حسنا . ولما خيم الظلام ، ونامت الاطيار خرجت الخادمة تبحث عنه فى قلق وفزع حتى وجدته مستلقيا على العشب ، لاهيا بأحلامه عن العالم .

نقله والده بعد ذلك الى (كاين) . وعهد الى قسيس يتولى تعليمه ، ولكن برناردان ضاق ذرعا باللغة اللاتينية التى يلقنه القسيس اياها . وكان يأسف أشد الأسف على فراق أمه وأخته وخادمته . ويفكر ودموعه منهمرة على خديه ، فى سعادة الببغاء والكلب اللذين يعيشان فى بيت أبيه دونه . اى أنه شعر فى أعماق نفسه ، وهو بعيد عن اهله ، بأنه بائس . وبعد مضى عشرة اشهر ، سعت عرابته او امه الروحية لدى ابيه حتى عاد الى البيت ولم يكد يستقر به المقام ، ويستمتع بحديقته وكتابه عن اباء الصحراء ، ويسمع لعرابته وهى تقص عليه أنباء شائقة عن عصر لويس الرابع عشر ، حتى أخذه راهب من الجيران فى رحلة الى بلاد النورمانديا . وكان هذا الراهب قاصا لبقا يملك على النفس مشاعرها . فأحبه برناردان ، وخطر له أن يتبع مذهبه ، ويكون من شيعته . بعد ذلك بقليل أعطته عرابته قصة (روبن صن كروزو) ، فأكب على تلاوتها ، وما أن استوعبها ، حتى نسى كل شىء سواها ، ولم يعد يرى من حوله غير جزيرة مقفرة موحشة ، يفلح أرضها العذراء ، ويغرس فيها مختلف النباتات ، محاطا بصنوف متقاربة من الاشجار على صورة سياج يدفع عن غرسه عدوان الرياح . وكان هذا الخيال ينبوع مسرة نفسية له طويلة الامد . ولكنه لما بلغ الثانية عشرة من عمره ، شعر بأول ألم فى القلب مأتاه وحدته الخيالية . وأحس برغبة ملحة فى أصدقاء ونساء وحركة ، وشاقه طموحه الى السلطان والحكم ، وظل طيلة عمره يسبح فى حلم الطفولة هذا . وطالما سن هذا الطموح المحب للبشر ، برغم نفوره من الاجتماع ، قوانين سرابية وطبقها على مخلوقات خيالية . وانه لفى حالته هذه ، اذا عمه الربان جوديو ، يوشك أن يرحل بسفينته الى جزر المارتينيك . فتوسل الشاب برناردان الى ابيه ، أن يسمح له بالسفر على تلك السفينة ، فقبل أبوه ، وسافر الشاب ممتلىء النفس بالامانى والامال ، مؤمنا بأنه سيجد جزيرة يقيم نفسه ملكا عليها ، ولكن دوار البحر ، وبطء السفر الممل ، وغلظة الربان ، وخيبة آماله جعلته يعود الى وطنه ساخطا على الناس والحياة . ولم يدر أبوه ماذا يصنع لهذا الولد القلق الذى لا يستقر ولا يرضى . فنصحت له عرابة ابيه ، بأن يرسله الى الاباء اليسوعيين فى (كاين) فوافق على ذلك وما أن قضى برناردان بينهم بعض الوقت ، حتى أحبهم ، او على الارجح احب فيهم

اعمال المرسلين منهم الى البقاع النائية السحيقة وسير استشهادهم فى سبيل نشر دعوتهم ، ورأى نفسه فى الخيال كعادته يتنقل من جزيرة الى أخرى ، يهدى الجاهلين والمتوحشين ، ويعرض نفسه لكثير من المحن والاخطار . ثم اعلن ذات يوم ، لكبير الاباء اليسوعيين ، رغبته فى أن يكون رحاله ومبشرا وشهيدا ، واصغى اليه الرجل وعلى شفتيه بسمة هادئة ثم وعده بأن يوجهه الوجهة التى تبلغه مايصبو اليه ، ولكنه كتب الى ابيه برغبة ابنه ، فخشى الوالد أن يستمر برناردان فى جنونه ، فاستدعاه ولم يجد عسرا فى ارجاعه عن عزمه ثم ادخله معهد (روان)، وهناك درس الفلسفة ونال الجائزة الاولى فى الرياضة سنة ١٧٥٧ .

وفى ذلك الوقت أوصد فى وجهه بيت أبيه ، اذ توفيت أمه ، وتزوج والده ، وكف عن امداده بالمال . وبعد ان امضى الفارس الصغير — كما كان يسمى نفسه — عاما فى مدرسة هندسة القناطر والجسور ، التمس عملا فى ادارة ، المدرسة الحربية وكانت بلاده فى حرب مع أعدائها . والحق بهيئة أركان الحرب ، بمرتب مرض ، وأرسل الى (دسلدورف) وخاض المعارك مدفوعا بآمال كبيرة . وحدث أن هزمت قوته فى احدى المعارك ، فاضطر الى عبور نهر سباحة ، ورأى ذلك النهر ، ومايعترض مجراه من الصخور مغطى بأشلاء الجند فهاله هذا المنظر البشع ونال من نفسه كل منال ، ولم يكن يتصور ، وقد قرأ كتب (تيت ليف) المؤرخ الرومانى ، أن الحرب تبلغ هذا الحد من الدمامة والفظاعة . ولما أجهر بأفكاره هذه غضب عليه الرؤساء ، ففصل من عمله ، وأعيد الى بلده .

رجع الى بيت ابيه ، واستمتع اياما بالراحة والهدوء وطيب العيش ولكن امرأة أبيه ، افهمته فى كلمات ملتوية ، ان بقاءه غير مرغوب فيه ، فغادر البيت واخذ سمته الى باريس خالى الوفاض .

وفى ذلك الحين ، أى عام ١٧٦١ ، كانت جزيرة مالطة مهددة بالغزو من قبل الاتراك فسافر برناردان الى تلك الجزيرة ، ولكن ضباط الحامية لم يقبلوه ضابطا بينهم ، فاضطر الى العيش على نفقته ، عيشا كله ضيق وضنك وسخط وتململ . واعتقد اهل الجزيرة أنه مجنون ، فأصابوا نفسه المتوجعة بالسخرية والتندر . ومضى وقت طويل ولم يغز الاتراك الجزيرة .

عاد برناردان الى باريس ، بعد ان صادف أهوالا فى البحر كثيرة ، واستأجر غرفة فى شارع (ماسون) ، الذى كان راسين الشاعر العظيم يقيم فيه مع زوجه وأولاده فى القرن السابع عشر . ثم زار كثيرا من ذوى النفوذ ، وكتب اليهم الرسائل سائلا اياهم عملا ، ولكنه لم يظفر منهم بما يكفل له الرزق . واستبد به العوز ، حتى أن صاحبة البيت توعدته بالطرد وامتنع الخباز عن اعطائه مايتبلغ به ولما تملكه اليأس من حكومة الملك ، عادت الى ذهنه فكرة انشاء جمهورية ، فاقترض بعض المال ، وباع ملابسه وسافر الى بروكسل ثم الى لاهاى ثم الى روسيا، وكانت كاترين الثانية قد اعتلت العرش بعد مقتل زوجها . ومكث هناك أربعة اعوام فى خدمة حكومة لايحبها ، اذ كان قد ساعده جنرال

فرنسى فى خدمة روسيا ، على ان يلتحق ملازما ، بسلاح الهندسة الحربية . ولما نفد صبره ، وامتلأت نفسه بأوهام جديدة ترك منصبه وسافر الى بولانك حيث رأى منظر العبودية تماثل ماراه منها فى روسيا فمكث فى فارسوفيا مدة ، وحدثت له عدة حوادث منها السىء الاليم ، ومنها الرقيق البهيج ، الذى يتصل بحب اميره بولنيه له . ثم زهدت فيه الاميرة فافترقا ، وسافر الى ساكس ثم الى برلين وبوتسدام حيث لم تقع عينه على غير الجنـــد والثكنات الفخمة . وهنـــاك طلب من فردريك أن يمنحه رتبة الصاغ فى جيشه فرفض سؤله . وبعدرحلات كثيرة عديمة الجدوى ، عاد الى فرنسا ولم يصل الى تحقيق شىء من غرضه وآماله ، لانه لم يثابر فى عزم على تحقيق شىء منها .

ولما نزل من الســفينة فى الهافر قابلته خادمته العجوز فأكرمت وفادته ، وذكرته وهى تمسح دموعها بطرف مبدعتها بما كان منه فى الغابة حيث أراد أن يتخذ منها فى طفولته صومعة كآباء الصحراء .

ثم توجه الى باريس ، واســتأجر غرفة عند قسيس فى ضاحية قريبة من فرساى . وعاش فى القرية مع كلبه بعيدا عن الناس ، الذين يجرح الاختلاط بهم مشاعره . ومن هناك كان يرسل للحكومة فى فرساى، مذكرات لم تطلب منه ، ويطالب بتعويضات لا حق له فيها . وشـــعر فى دخيلته شعورا غامضا ، بأنه يملك القوة على اتمام أعمال غير عادية. وتولد فى نفسه ، من جراء شعوره هذا ، قلق شديد دفعه الى التردد الذل الأليم على مكاتب الحكومة والجهر بالشــكاية الصــارخة فى كل مناسبة ثم تبسم له الحظ فعين مهندسا ملكيـــا فى جزيرة موريس ، وسافر ومعه كلبه وكتبه وأحلامه ، وسره أن يحمل الانجيل ، ودائرة المعارف (الانسكليوبيديا) الى أقوام يعيشون عيشة بدائية ، وخيل اليه أنه سينشىء الجمهورية التى يصبو اليها وقرر فى نفسه منع تداول الذهب منها ، لأنه أصل المساوىء ومصــدر الآلام والشرور ، واقامة الاعياد الرسمية فى المواسم الزراعية ، ونشر السلام والوئام بين أهل الجزيرة ، ثم بين أهل المعمورة جميعا وبينما هو سابح فى هذه الاحلام المغرية على ظهر السفينة ، اذا رئيس البعثة يسر اليه أنه مســتعمر فى الظاهر فقط ، وأن مهمته الحقيقية هى جمع عبيد سود لبيعهم . فلما سمع برناردان ذلك ، تهالك فى نفسه وهاله الامر وتعاظمه ، وأيقن أن مواطنيه يريدون أن يسرقوا منه رعاياه ... أى رعايا الفضـــيلة المشتهاه !

لم يكن برناردان محبا لركوب البحر ، وكانت الرحلة شاقة تفشى أثناءها المرض بالملاحين عند مضيق موزامبيق ، فوضعوا على ظهـــر السفينة أملا فى أن ترد عليهم أشعة الشمس قوتهم وتمســـح ما بهم من نهكة الداء . ولكن كثيرا منهم استوفوا أنفاسهم فى اطار اليم ولما وطىء برناردان أرض الجـــزيرة ظهرت له لأول وهلة قبيحة قاحلة كثيرة ، الصخور خشنة المنظر ، على النقيض مما كان يتخيلها ، ولم يجد منها من الامكنة اللائقة قليلا الا (بورلويس) . ولم يلبث الا قليلا حتى عاد سخطه الى الاســتيلاء على نفسه ، وأصبح يرى الســعادة ، فى جزء

صغير من الارض ، ومنزل متواضع عند أبواب باريس . وتمنى وهو يعاني حرارة الشمس الافريقية أن يعيش في ثلوج فنلندا وليس من شك، في أن هذا القلق قديم لازم الانسانية في جميع أدوارها. قال (أوروديبس) الاغريقي ، وصاحب القصص التمثيلية الخالدة « انك ايها الانسان سريع التغير ولا تستمتع بشيء ، ما تراه أمامك لا يعجبك وتفضل عليه ما هو بعيد عنك . حياة الناس كلها الم . ونحن لعب تلهيها أكاذيب في غير طائل » .

حزن برناردان وشكا كعادته ، وكتب كثيرا من الرسائل المريرة، وتوجع لحال العبيد السود وبؤسهم . ولكن الطبيعة سحرته، فجلس خلال الجزيرة وسار على العشب والرمال الرخوة الندية عاري القدمين، وتأمل في أعجاب أشجارها وطيرها وحيوانها . وتذكر وهو في نشوته هذه الاميرة البولونية التي سقته كؤوسا مترعة من رحيق الحب الممتع، فامتزجت في نفسه صور الحب بصور الطبيعة ، وبقيت كامنة حتى اتيح لها الظهور في قصته الخالدة « بول وفرجيني » .

وبعد أن أقام في الجزيرة عامين ، عاد الى باريس وطبع مذكرات رحلته في كتاب يشتمل على علم بسيط ووصف رائع ، ولكن الجمهور لم يقرأ هذا الكتاب ، وكل ما أفاده برناردان منه ، أنه فتح له ثوى (أي صالون) الانسكلوبيديين .

أتصل برناردان بهؤلاء العلماء ، والصفوة النخبة ، ولكنه بعد قليل شعر بأنهم لا يقدرون علمه وصدف عنهم وتوحش .

لم يعد يأمل في انشاء جمهورية على ساحل بحيرة ، أو في جزيرة نائية وقرر أن يضع كتابا ضخما عن الطبيعة وشرع فعلا في تحقيق رغبته هذه سنة ١٧٧١ . وفي ذلك الوقت اتصل بروسو ، ووجد فيه استاذه وتوثقت بينهما الصداقة ، ولكنهما كانا يتشاحنان كثيرا ثم لا يلبث أن يجمعهما الصلح بعد قليل . وكانا كثيرا ما يستريضان معا، ويتباحثان في الالوهية والفضيلة والطبيعة ، ثم يصمتان ليتأملا غروب الشمس أو تسترها بالسحب .

وكان برناردان في حدته يرهق صديقا له في وزارة الخارجية يدعى هينان بطلب المساعدة ، حتى تعوضه الحكومة وكان يفضل طريقة تعويضه ثم يرفض في كبرياء ما طلبه في اصرار ولكن رفضه كان شكليا ، اذ كان يقبل بعد رجاء أي أنه كان من طبعه أن يقبل المعروف الذي يلح في طلبه بعد أن ، يرجوه مسديه . وحدث ذات مرة أن كثر العمل على هينان فظل أياما لا يرد على رسائل برناردان ، فما كان من هذا الا أن غمر صديقه باللوم والتقريع ولما ضاق هينان ذرعا به ، كتب اليه يقول « انك طيب القلب ، ناصح السريرة ولكنك في بعض الاحيان فيما يظهر ، تتخذ صديقك روسو قدوة ومثالا ، وهو أكثر المبطلين لغوا !.

اصبح برناردان كأستاذه روسو لا يرى من حوله غير الحسد والخيانة والاضطهاد ، وكانت البدعة الشائعة أن يكون الانسان تعسا

بائسا ، والاعتقاد ، الذى نشره روسو أن الفضيلة والبؤس صنوان لا يفترقان أصبح رأيا مبجلا ولم يقف به الامر عند هـذا الحد ، بل اصيب بمرض غريب فكانت تمر ببصره بروق تريه الاشـياء مضـاعفة ومتحركة ، حتى أنه يرى فى الافق شمسين! واستولت على نفسه الوان من الفزع لا يعرف لها سببا . ولم يعد يستطيع عبور نهر السين دون أن تتملكه رعدة ولم يعد يجرؤ على اجتياز حديقة بها حوض ماء ، أو يمكث بغرفة بها كثير من الناس وعلى الاخص اذا كانت مغلقة النوافذ والابواب وحين كان يجتاز حديقة عامة ، يخيل اليه أن المستر يضين يرمقونه بنظرات شرسه ، ويسخرون منه ويتمنون موته ولكنه حين يرى الاطفال ، يمرحون ويلعبون ، ويسمع صراخهم وضحكهم كان يهدأ ويطمئن .

وفى سنة ١٧٨٤ ، اتم برناردان كتابه « دراسـات فى الطبيعة » وعرض المسودة على كثير من الناشرين فرفضوها . فلم يجد وسيلة لنشر كتابه غير الاقتراض ، وطبعه على نفقته الخاصة ، ولما ظهر الكتاب ، نال نجـاحا عظيما ، وأصبح برناردان المغمـور بالأمس ، نابه الذكر فجأة ، وكان حينذاك فى السابعة والأربعين من عمره .

ان الجماعة كانت تخيب امله ، وتسبب له الضيق والملل ، فالقى بنفسه فى احضان الطبيعة . وتأملها وترجمها وفقا لحالة قلبه ، وحقق فيها حلمه الخـاص بالنظام والانسجام والطيبة الشـاملة التى اخطأت الجماعة طريق الوصول اليها .

وكان الناس ، فى عهد لويس السـادس عشر يعجبون بالطبيعة فى الحدائق المنسقة على الطراز الانجليزى ، ويبتهجون بمنظر الاشجار العالية المطلة على الغدران الصناعية ، ولذلك استقبلوا كتاب برناردان استقبالا جميلا ، اذ وجـدوا فيه مناظر وأحاسيس ملائمـة لأذواقهم معبرة عما فى نفوسهم . وفضلا عن ذلك فان هذه الدراسات التى اخرجها برناردان بعيـدا عن التـاريخ الطبيعى ، وعن المعـامل والمكتبات كان يستطيع كل فرد أن يقرأها ويشعر بها ويستخلص منها ما يلائمه .

وقد شرح برناردان الطبيعـة ، دون أن يكون عالما ، ودون أن يلقى باله الى العلم والذى قرأ كتـابه ، يتبين فى يسر بعد المؤلف عن الاختصاص العلمى ، ويلمح أثر روسـو واضحا فى شرح الألوهية وفى فلسفته الاجتماعية : أى بغضه للتفاوت الاجتماعى والعظامية (الارستقراطية) وحبه للأنسانية والفقراء ، وكلفه بالبساطة وتحمسه للفضيلة . ولكن برناردان ، وضع كل ذلك فى قوالب سـاذجة لا تصـل فى قوتها الى قوالب أستاذه ولا يصعب على من ينظر فى هذا الكتاب ، ويقرأ هـذه الدراسات كما يقول أناتول فرانس أن يرى خلالها عناصر كتاب خالد أخرجه (شاتوبريان) فيما بعد هو « عبقرية المسيحية » . ويثبت هذا الرأى ، حين يقرأ الانسان فى الدراسة الحادية عشرة الفصل الخاص بمهاجرة الحيوان ، اذ يجد أن شاتوبريان قد اغترف من طريقتـه وفكرته ، ويجد أن الافكار الفلسفية البسـيطة السطحية التى ذكرها برناردان قد صاغها شاتوبريان قوية عميقة . وهما يتشابهان فى القوة

العجيبة على التقاط المناظر وتصويرها على القرطاس . ولكن برناردان يختلف عن الآخر في أن هذه القدرة عنده تفوق بكثير قدرته على فهم الأفكار واستيعابها والتعبير عنها فهو فيلسوف سطحي ، ولكنه مصور ماهر عظيم فقارىء «دراسات في الطبيعة» ليشعر بسحر شديد لأنه يتنقل بين تأثيرات حسية خالصة وصور شتى من الاصوات والالوان والحركات . « حقا ان المؤلف يشرح الكون شرحا بعيدا عن حقائق العلم ولكنه تأمل المخلوقات تأملا عميقا ودفعنا الى تأملها مثله فدراساته تعتبر مادة قيمة للفن ونماذج نفسية للفنان ، لأن وصفه من الدقة بحيث يظهر الاصل في أبهى وأفصح صورة . ولا غرو في ذلك ، ففي أذنه صوت الغابات ، وفي عينه سحب المناطق الحارة الملونة فكان منقطع النظير في وصف هزيم الرياح وعواصف البحر وزبد الامواج ، وتجمع السحب ، وتفرقهما واحمرار الشفق واسوداده . فهو أمام الطبيعة لا يكون الا فنانا خالصا ، ويختفي فيه الرجل الساذج بتفاؤله وانسانيته » .

وقد سلك برناردان عن عمد طريقه الى ثورة لغوية ، اذ انه كان في حاجة الى كلمات فنية خالصة يعبر بها عن ألوان وأنواع من النباتات والحيوان رآها في رحلاته . لقد نبه روسو الناس الى الطبيعة ولكن برناردان جعل القارىء يشعر شعورا خالصا دقيقا ، وهذا شيء جليل القدر ، يدين به الأدب الى هذا الكاتب .

وفي سنة ١٧٨٨ وضع برناردان قصة صغيرة ، أو مغزلة رائعة سماها « بول وفرجيني » تشتمل على الفلسفة الساذجة التي اشتملت عليها « دراسات في الطبيعة » مع تحليل نفسي قصير . ولما قرأها قبل نشرها في بيت « نكر » وزير لويس السادس عشر المشهور ، وحضر القراءة زوج الوزير ، وبوفون ، وجاليانى وتوما . وبعد قليل نظر بودون في ساعته وانصرف ونام توما على مقعده ، وملت مدام نكر فخرج المؤلف يائسا حزينا ولكن الجمهور لم يجد الملل والضيق ، بل وجد الروعة والسحر .. فبكى !

وفي الحق أن القصة تاريخ مؤثر لطفلين من أصل أوروبي ، تحابا في براءة وصفاء على أرض عذراء وفي جزيرة موحشة وكانا جاهلين فقيرين بعيدين عن كل مدنية وليس لهما اتصال بالجماعة ومحررين من الاوضاع المستبدة والاحتياج الكاذب والتشوف الباطل . أقام برناردان لهذين الطفلين عشا بديعا في جزيرة موريس التي أثارت استياءه لأول وهلة بما حوت من بؤس الاستعباد ، والتي رسمها في قصته في عظمتها البدائية الرقيقة ، وجملها بخيال شعري رائع ، وانعشها بذكرى حبه البعيد في فارسوفيا ، ونشر عليها روح الاسف على ما لم يدركه والحنين الى الشيء المفقود وقد زان الامكنة في قصته وزخرفها بروعة المخلوقات التي تعيش فيها ونشر على الطبيعة روح طفلين بريئين ، رفعهما المؤلف الى ذروة الاساطير الرمزية ، فأضفى عليهما جمالا يأخذ بمجامع القلوب . وفي هذا تتجلى عظمة برناردان وعبقريته ، ويلاحظ قارىء القصة أن الشيخ الوقور الذي ابتكره المؤلف ليقص تاريخ

بول وفرجينى ليس مجرد قاص ، ولكنه حكيم عميق يتكلم كجان جاك روسو ، ويشعر عميق الشعور بالطبيعة ، ويرغم القارىء على أن يشعر بها مثله ومن أبدع ما صوره برناردان فى قصته فضيلة فرجينى وحيائها أن يجعلها تفضل الموت على أن تخلع ملابسها وتمسك بملاح عارى الجسد ، لتنجو بنفسها والحياء ، كما يقول ديدرو من أجمل الازهار فى شجرة الأخلاق — وكانت فرجينى قد دعيت الى فرنسا من قريبة لها وافرة المال ، شديدة الاثرة فلما أطلعت الفتاة على أوضاع الجماعة فى فرنسا واخلاقها هالها ما رأت ، ولم تطق صبرا عليه ، فسارت المسكينة الى الجزيرة وقبل أن تبلغ الشاطىء وبول ينتظرها فى شوق ملح ، اشتدت العاصفة فاصطدمت السفينة بالصخور ، وتوفيت فرجينى على مرأى من العاشق الممود ثم توفى بعد ذلك بول، وكذلك أمه وأم الفتاة .

ويلاحظ قارىء القصة أنها خالية من العقد الفنية ، ومن تصوير الخلق ، ولكنه يجد فيها وصفا لجولات بول وفرجينى ومرحهما وسقوط الامطار الغزيرة وأزمة الفراق والعاصفة التى قضت على السفينة المقلة لفرجينى عند عودتها من فرنسا الى الجزيرة هذه هى الحوادث ونوابض الانفعال فى القصة ، ولكن الاطار جذاب ، خلاب . انه طبيعة المناطق الحارة بغناها المستبهم ، وضروب تغيرها العجيب وليس فى القصة بلاغة فريدة ، ولكنها مليئة بتأثيرات قوية تشع الاخلاص الفريد بألفاظ خاصة طريفة . ولقد كان أثر هذه القصة سنة ١٧٨٨ عظيما فى الجماعة التى أضناها اعنات العقل وانهكت قواها الحياة المتكلفة . وكان روسو قد أعد هذه الجماعة الى تذوق العاطفة والشعور أكثر من تذوق الفكر فجاءت قصة بول وفرجينى ، بما فيها من نضارة وبراءة وسذاجة وطبيعة رائعة عذراء ، بلسما للنفوس ، ومهدئا للأفكار والأخلاق . ومما سبق يتبين أن برناردان كان قوى الأثر فى تجديد الأدب الفرنسى وتطور الذوق فى فرنسا وابلاغه عتبة الابتداع أى « الرومانتزم » .

لما توفر لبرناردان بعض المال مرت بخاطره فكرة العيش فى صومعة ، فابتاع فى نهاية شارع « لارين لايلانش » بعيدا عن ضوضاء المدينة بيتا صغيرا تحيط به حديقة قسمها الى ثلاثة اقسام : قسم للزهور ، وقسم للخضر ، وقسم لاشجار الفاكهة وتوالت عليه فى صومعته الرسائل من كبار الناس فضلا عن زيارتهم له . وكلفت نساء كثيرات بمؤلف « بول وفرجينى » وعرضن عليه الزواج . وبعد ظهور قصته بعامين أو ثلاثة كان يسمع فى الحدائق العامة الامهات والحاضنات يطلقن على الاطفال الذكور والاناث بول وفرجينى .

وفى سنة ١٧٨٩ عين له الملك معاشا حسنا ، ودرت عليه القصة مالا كثيرا وفى شهر سبتمبر من العام نفسه نشر برناردان « أمانى معتزل » يدافع فيها عن الفلاحين المرهقين بالضرائب ، وعن السود

المستعبدين فى المستعمرات • وكان سجن الباستيل فى ذلك الوقت قد سقط ، وتكونت الجمعية الوطنية ، فاعتقد برناردان أن الثورة قد انتهت ، وبشر نفسه بعودة العصر الذهبى ، وبعهد للسعادة الانسانية طويل الأجل •

وفى سنة ١٧٩٢ عين بعد وفاة بوفون مديرا لحدائق الملك فاستقرت حياته المالية ، وشرع يفكر فى الزواج وكان فى الخامسة والخمسين من عمره ولا يزال صحيح الجسم قوى البنية • فتزوج من الآنسة فيليستى ديدو من أسرة مشهورة بمزاولة الطباعة • ومع انها كانت فى شرخ صباها ، فانها كانت تميل اليه كثيرا ، وقد رزق منها بطفلين : بول وفرجينى •

وفى سنة ١٧٩٣ لجأ برناردان الى الريف تجنبا لفظاعة الارهاب. وصادف فى أول عهد الارهاب هذا عنتا من المواطنين المسلحين ولكن شعره الابيض وحبه للطبيعة ، وذكرى صلته لروسو ، كل ذلك أنقذه من المصير الاليم الذى صار اليه الكثير من أبناء عصره •

وفى سنة ١٧٩٤ عين أستاذا لعلم الاخلاق فى المدرسة العليا « النورمال » وكانت قد أنشئت حديثا فألقى الدرس ، الأول الذى استهله بقوله :

« انى رب أسرة وأقيم فى الريف •• » ثم انقطع عن التدريس • وفى السنة التالية أنشىء المجتمع العلمى ، ودعى برناردان لالقاء محاضرات الأخلاق ، فحاول أن ينشر مذهبه فى الألوهية وهو الاعتقاد بوجود الله مع انكار الوحى ، ولكنه لم يصادف نجاحا •

ثم توفيت زوجه وهو فى الثالثة والستين من عمره وتركت له فرجينى وهى فى الرابعة من عمرها ، وبول فى الشهر الثامن من عمره • ثم تزوج للمرة الثانية من فتاة فى الثامنة عشرة تدعى « ديذيرى بلفور » أحبته حبا شديدا فى قصته الخالدة • وكان مع زوجته جافا قليلا ، يقبل وفاءها على أنه واجب مفروض لايستحق حمدا ولا ثناء • فهو من القلائل الذين تتناقص أخلاقهم تناقصا تاما مع ثمرات عقولهم •

وقد زاره لويس ، وجوزيف بونابرت ، وغمره بالعطف • ثم زاره نابليون بعد موقعة « مارنجو » وحياه بكثير من الود ، حتى أن برناردان سماه « البطل الفيلسوف » ، وشبهه فى خطبه له بالنسر الذى يندفع وسط العواصف ثم أثقلت ظهره الأعوام ، وبدأت العلة تهاجمه فى فترات متقاربة •

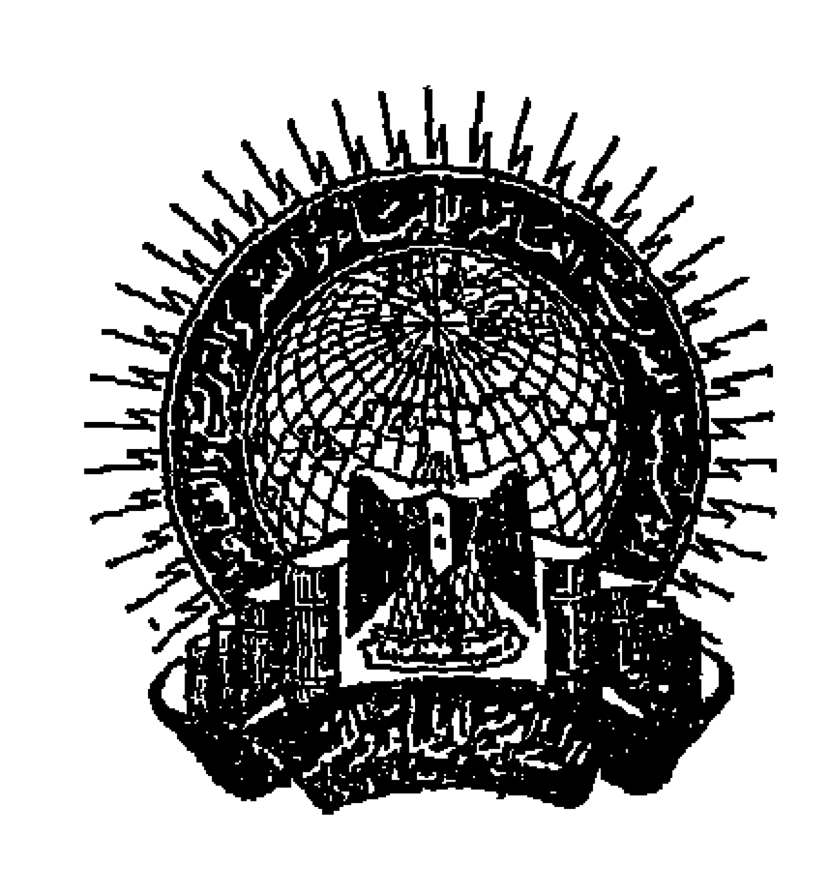
وفى أول شهر نوفمبر سنة ١٨١٣ بينما كان عائدا من استراضة فى الريف كعادته ، شعر بهبوط قواه هبوطا شديدا ، وكاد يسقط على الارض فى غابة « سان جرمان » • ولكنه تحامل على نفسه حتى بلغ

حديقة منزله . فجلس على مقعد ، وجعل يطيل النظر الى الاشجار وأوراق الاغصان المصفرة التى تسقط على الارض ، ذابلة ميتة .

وفى ٢١ يناير سنة ١٨١٤ والارض مغطاه بالثلوج ، كان برناردان ملقى على فراشه وقت الظهر محاطا بأفراد أسرته وهـــو يعانى سكرات الموت . ثم تمتم فى صوت خافت قائلا :

« الهى » ! وأسلم الروح وهو فى السابعة والســبعين من عمره بعد أن دون اسمه فى سجل الخالدين .

تم بعون الله



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٧ ـ ٤٠٧٥٣ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤١٠١٢



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤١٠١٢ ـ ٤٥٣٤٦



العـــدد ١٩ الثمن ١٢ قرش